وقفـات
فـي
تـاريخ الســودان

بقلم

صلاح محي الدين

دار ومكتبة الهلال

الاهـــداء

.. إلى الأصلاء على هذا الثرى

.. أهدي هذه الصفحة الناصعة

.. من حركة شعبنا عبر التاريخ

حقوق هذه الطبعة
محفوظة للناشر

الطبعة الثالثة
١٩٩٥

منشورات
دار ومكتبة الهلال
بيروت ـ بئر العبد ـ شارع مكرزل ـ بناية برج الضاحية
تلفون : ٨٢٠٦٧٧ ـ ٨٣٦٩٨١ ـ فاكس : ٦٠٣٢٨٦ ـ ١ ـ (٩٦١)
ص.ب. :٥٠٠٣ / ١٥ ـ برقيا : مكتهلال

مقدمة

هذه المجموعة

للقارىء ولقطاع الشباب بوجه خاص يسرني أن أقدم هذه المجموعة. . أقدمها في هذه المرحلة الهامة في حياة وطننا، راجياً أن تكون اسهاماً ذا أثر في الاعداد المعنوي على أساس الالتصاق الواعي الحميم بتراث هذا الشعب عبر تاريخه الباسل التليد.

هذه المجموعة (وقفات في تاريخ السودان) هي في الأصل بحوث ومقالات كنت قد نشرتها منذ أعوام في مجلة الخرطوم والصحف السودانية الأخرى، وقد صغتها ونقحتها الآن في الشكل المناسب لتصدر كمجموعة يضمها كتاب.

ان تاريخ وطننا كان الحقل الأساسي الذي استهدفته حملة المسخ والتشويش كهدف أساسي منذ استهدفت جيوش الغزاة أرضنا، ذلك أن قتل روح المقاومة في شعب صلب مقاتل ذا ميراث نضالي عريق يشكل الركيزة الأولى في صنع الهزيمة المعنوية، الشرط الأول لكي يضمن الغزاة الفاتحون

بقاءهم واستنزافهم الاستعماري للوطن. وكان من المنطقي بعد أن انتصر كفاح شعبنا وتحقق الاستقلال الوطني أن نزيل ذلك الركام والزيف ونجلو الصدأ الذي ألحقه الأعداء بلؤم بمعدننا البطولي الأصيل ليعود وضاءً يلهم أجيالنا الجديدة ويضع أمامها السيرة الناصعة لنضال الآباء والأجداد عبر الأحقاب من أجل الحرية والعزة والعيش الكريم. لكن وبكل أسف شغلت عهود ما بعد الاستقلال الوطني بقضاياهم الخاصة داخل دائرة الصراع على السلطة في نطاق الطائفية والعشائرية كما شغل من جانب آخر بعض المؤهلين أكاديمياً عن ادراك هذه المعاني، شغلوا بقشور الأشياء، ففهموا الأكاديمية والمنهجية على أنها السير في ذات النهج الذي نصب لهم فاستمر الزيف والروائية الخاوية وأبعد بذلك أثمن ما نملك، وهو تراثنا النضالي، أبعد عن دائرة التأثير الفعال في أجيالنا الصاعدة.

ولكن تاريخ شعبنا كما أثبتت وقائع الحياة هو أضخم بكثير من كل تزييف، فقد صنعه كفاح الأبطال وتضحيات الرجال والنساء، صنعه ميراث مقاومة صلبة وظل يجري في العروق مجرى الدماء، لذلك لم تفتر عزيمة الشعب ولم يخمد روحه المقاوم ذلك الذي واجه الغزاة في نضال مستمر ضد نظام الحكم التركي المصري ثم ضد نظام الاستعمار الثنائي الانجليزي المصري حتى حقق الوطن استقلاله.

بقي أن نزيل عن ذلك الميراث الباسل ما حاول الأعداء حجبه به من صدأ وتزييف ليعود له وهجه القوي يلهب القلوب

ويحرك المشاعر ويضع أمام أجيالنا الجديدة صورة حقيقية لسمات شعبهم الباسل عبر القرون.

.. والله الموفق..

المؤلف

تاريخ شعب عظيم الحيوية[1]

هل لسمات بلاد النوبة وشعب السودان التاريخية: يجب أن نبحث عن التفسير الأساسي فيما تميزت به بيئاتهم من سمات؟ أم هل يجب أن نعتقد مع بدفور سلجمان على أن التفسير الوحيد الحقيقي يوجد في مبحث علم الأجناس والوراثة العضوية لهذا الشعب النوبي الزنجي العربي المختلط الذي أنتج «سوداني اليوم» بعد عوامل التمازج والتداخل التي شكلت الخصائص العضوية والعادات والسلوك الخاص بشعب سودان اليوم. انه بلا شك، وكشأن مجتمعات البشر جميعاً على ظهر هذا الكوكب، خضعت بلاد السودان وشعبها لكل تلك العوامل مجتمعة، سلباً وإيجاباً فأنتجت خصائص الوطن والشعب عبر التاريخ الطويل.

وعلى جانب التراث الإنساني في الحركة والحيوية من أجل الحرية وإعادة تشكيل الحياة طلباً للعدل والكرامة، فإن

---

(١) نشر هذا المقال بعدد مجلة الإذاعة والتلفزيون الخاص الصادر بمناسبة الذكرى الأولى لثورة مايو الصادر في ٢٥ مايو ١٩٧٠م.

إسهام شعب السودان عبر الأجيال يحتل مكانه المرموق كما يعلمنا تاريخنا.

ففي عام ٧٢١ قبل الميلاد اكتملت حلقة بارزة في سلسلة التحرك الوطني على هذه الأرض حين برز على مسرح الأحداث القائد السوداني العظيم «بعنخي» فاستطاع أن ينظم المقاومة الشعبية ويبلورها في شكل جيش قوي منظم في فترة من التاريخ اشتد فيها الكرب وضاق شعبنا من الغزو الذي بدأ من عام ١٥٨٠ قبل الميلاد، وبلغ ذروته على أيدي أباطرة مصر من سلالة الفرعون «أحمس»..

برز هذا القائد «بعنخي» فنظم الصفوف وكون قوة ضخمة جالدت الغزاة فكسرت شوكتهم عن البلاد في أكبر انتفاضة في تاريخنا القديم، ولم يكتف بذلك وإنما تابع الزحف حتى الديار المصرية محطماً كل مقاومة ومقتصاً من الذين مرقوا كرامة وطنه، حتى علا ذكره، كما يحدثنا شارلس سمت في كتابه عن الحقب القديمة فيقول:

«ليس من ريب أن بعنخي كان أعظم قائد في وادي النيل في القرن الثامن قبل الميلاد، ومما سجل عن احتلاله لمصر نستطيع أن نستخلص الحقائق عن هذا الحاكم السوداني الفذ، فكان على الجانب الإنساني رجلاً كريم الخصال انتزع نفسه من أبهة الملك وعاش إلى جانب أهله كأي رجل بينهم متقشفاً متواضعاً وهو العكس التام لما عهده الشعب من الحكام السابقين «الفراعنة» البالغي العنجهية والغرور، وعلى الجانب

الحضاري لا يزال المعبد المهيب الذي شاده على جبل البركل أروع عمل هندسي ومعماري عرفه السودان حتى يومنا هذا، يزين ذلك كله صفاته كجندي عظيم ذي مقدرة حربية وعزم صلد لا يلين، بقيادته عرف العالم شهرة السودانيين بالشجاعة والاقدام تلك التي أصبحت تقليداً ثابتاً عرف به السودانيون. . الخ».

وكانت تلك الانتفاضة المنظمة والقوية دفعة كبرى إلى الأمام في سبيل النضال المستمر للحفاظ على استقلال الوطن والانتقام من غزاته الطامعين، إذ واصلت حمل الرسالة الأجيال التي أعقبت جيل «بعنخي» منذ خلفائه شبكا وشبتاكا وترهاقا العظيم وتاتون. . الخ من ملوك النوبة القديمة في كوش في شقها الشمالي مملكة نبتة وشقها الجنوبي مملكة مروى القديمة.

في عهد الممالك المسيحية:

واستمر تعاقب الحياة على ثرى الوطن في اتصال وتأثر بمجريات التطورات التاريخية في العالم من حولنا في تفاعل كامل سلباً وإيجاباً، ولكننا لم نكن أبداً ذيلاً ولم يكن الوطن خارج دائرة الأحداث العالمية. عرفت البلاد الازدهار كما تعرضت لعوامل الاضمحلال حتى قاد ذلك لاندثار عهود نظم الإدارة والحكم التي سادت طويلاً في مملكتي كوش. ودخلت المسيحية إلى السودان فنشأت نظم للحكم جديدة تلبس زي الممالك المسيحية كان أبرزها ثلاث ممالك سودانية هي (النوبة

والمغرة وعلوة) ويصفها المؤرخ العربي المسعودي فيقول: «أما النوبة فافترقت فرقتين: فرقة في شرق النيل وفرقة في غربه وأناخت على شاطئيه فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد فى بلاد أسوان واتسعت مساكن النوبة التي على شاطىء النيل حتى لحقوا بأعاليه وبنوا دار مملكة عظيمة أسموها سوبا... الخ.. الخ».

.. وتلك العهود استمرت زمناً طويلاً «٥٤٠م ـ ١٥٠٤م» وحملت لقاحاً حضارياً جديداً قارب من التمازج والانصهار القومي عن طريق نبذ الوثنية ثم الاعتقاد في دين سماوي هو «المسيحية» وبرزت سمات جديدة كثيرة ليس أقلها اختراع أسلوب للكتابة النوبية بالحروف الاغريقية وترجمة الكتاب المقدس إلى النوبية وقوي الاتصال بالمراكز المسيحية في الاسكندرية وأثيوبيا ـ مما مهد السبيل لنقلة تاريخية جديدة.

عهد مملكة الفونج:

وكانت النقلة كبيرة فعلاً، وتتويجاً لمرحلة طويلة في نظم الحكم والإدارة، فلقد رأينا عبر كل تلك المراحل التاريخية في سلسلة التكون القومي للشعب السوداني، كيف أن هياكل الإدارة ونظمها كانت باستمرار احتواءً منطقياً لنوعية المضمون في المفاهيم والمرحلة التاريخية الاجتماعية التي تعيشها الجماعة، ولذلك فإن تلك الهياكل تشيخ وتذوي وتسقط كثوب الشرنقة كلما دخلت الجماعة ونظمها الاجتماعية وعلاقاتها الاقتصادية والمعيشية مرحلة تاريخية حضارية أجدّ، تسقط



الملك السوداني ترهاقا
٦٨٨ ـ ٦٦٣ ق. م.
تمثال أعظم ملوك الممالك السودانية القديمة: الملك ترهاقا.

الهياكل العجفاء نتيجة ثورة أو حرب أو اضمحلال أو فتن، لأنها في الواقع لم تعد الثوب الخارجي المناسب لاحتواء العلاقات التاريخية الجديدة فلا بد أن تذهب وتفسح المجال للهيكل الشاب الجديد القادر على التعبير الحقيقي عن المحتوى الجديد.

وكذلك يجب أن تفهم تحركات الجماعات عبر مراحل التاريخ في السعي المستمر الدائب نحو الأحسن والأكمل.

وكذلك كان الحال في السودان أوائل القرن السادس عشر الميلادي «١٥٠٤» حين قويت كثيراً أسباب الوحدة والتلاحم بين أبناء الوطن الواحد، فقد تقدمت كثيراً نظم الزراعة النيلية وازدهرت أدوات التبادل السلعي والخزفي والتجاري، ونشأت المدن والقرى الكبيرة ونشأت طبقة التجار والحرفيين تتبادل المصالح على نطاق كبير داخل القطر، وازداد التمازج والتقارب، وقويت أمارات بروز القومية السودانية الملتحمة للوجود.

ففي عام ١٥٠٤م نشأ التحالف الاتحادي بين قبائل القواسمة بزعامة الشيخ عبد الله جمّاع وقبائل الفونج برئاسة الملك عمارة دونقس، وكونا جيشاً موحداً تغلب بسهولة على الممالك الصغيرة ـ علوة والمغرة ـ وأقاما على أساس تحالفي أول دولة مركزية موحدة في قلب السودان عاصمتها سنار تضم كل أقاليم وسط السودان واتسعت شمالاً وغرباً وإلى جهة الشرق حتى الحدود الأثيوبية، وكانت دولة سودانية فتية تغلبت

في عهد الملك بادي أبي شلوخ على قوات الغزو الأثيوبي في عهد امبراطورهم أياسو، كما ضمت أقاليم المسبعات في كردفان إلى حظيرة الدولة الموحدة، ومكنت بذلك من دفع عوامل التمازج القومي واتساع نطاق التبادل التجاري والزراعي والحرفي داخل القطر ومع البلاد المجاورة، فاتسع العمران وتأكدت ملامح القطر السوداني واستمرت الدولة مزدهرة لأكثر من ثلاثة قرون.

ثم عملت العوامل التاريخية فتقدمت المرحلة الاجتماعية الحضارية ونشأت علاقات ذات مضمون أجد لم يكن هيكل الدولة بقادر على استيعابها واتخذ ذلك شكلاً قاد للفتن والنزاعات وتسبب في ضعضعة نفوذ الدوائر الحاكمة فدب الوهن ولم تستطع الفئات المتناحرة داخلياً من حل التماوج بسلطة وطنية مناسبة ممّا أغرى الدول الأجنبية المتربصة بالقطر باستعماره.

ففي عام ١٨٢١م استطاع محمد علي باشا حاكم مصر أن يغزو السودان مستغلاً تلك الظروف فحطم المقاومة السودانية غير المتحدة ووصل حتى العاصمة سنار فأعلن بذلك سقوط السودان المستقل وتحوله إلى دولة مستعمرة في عهد الفتح التركي المصري.

الثورة المهدية:

استمر الفتح التركي المصري للسودان فترة طويلة واجه فيها السودانيون صنوف الاذلال والاستنزاف على أيدي

مستعمريهم، وكانت المقاومة تقابل بوحشية وضراوة كما فعل الدفتردار صهر محمد علي باشا، حين أحرق القرى والمدن وأقام المذابح الرهيبة وأرسل بآلاف الرجال أسرى إلى مصر وذلك انتقاماً لحرق إسماعيل بن محمد علي باشا الذي أحرقه الملك نمر ملك الجعليين، ولكن ذلك القهر اللئيم مكن لبذرة التلاحم القومي ووعى السودانيون قيمة التلاحم الوطني وامتلأت القلوب بشحنة قوية من التحفز وتهيأت البلاد لانفجار عات ونضجت كل عوامل الثورة، ولم يكن ينقصها إلا الشكل الذي يتخذه التفجر والقائد الوطني القادر على تحمل تلك المسؤولية.

وتفجرت الأرض عن الرجل وكان ذلك في ١٢ أغسطس ١٨٨١م حين فجر محمد أحمد المهدي الثورة السودانية في جزيرة «ابا» الصغيرة. فقد قاد مائتين من الرجال المسلحين بالحراب والسيوف وواجه حملة الحكومة التركية المسلحة بالبنادق والمدافع فانتصر عليهم، وبدأت الثورة فانسحب المهدي إلى غرب السودان الحصين ومن هناك أدار المعارك العسكرية ضد قوات الحكومة - في قدير وفي تقلى وفي الأبيض وفي شيكان - فحطم كل جيوش الحكومة رغم التدخل الانجليزي وقيادة الضباط الانجليز الكبار لجيوش الحكومة واستطاع أن يتوج الانتفاضة الشعبية بزحف نهائي عظيم نحو آخر معقل بقي للاستعمار وهو «العاصمة الخرطوم».

زحف من الأبيض بقواته الضخمة وحاصر الخرطوم وفي

داخلها الحكمدار غردون وكل قوات ومؤسسات الحكومة التركية، وفي ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥م هجم عليها فقتل الحكمدار نفسه وسقطت العاصمة الخرطوم وتم هكذا تحرير السودان في القرن التاسع عشر بوسيلة الحرب التحريرية الشعبية وعلى رأسها قائد فذ وحكومة مؤقتة على نظام الخلافة ـ (الحكومة الإسلامية الأولى) ـ. وقال صاحب تاريخ السودان في هذا المقام، قال شقير: «ولقد اهتز لمهدي السودان العالم الإسلامي في جميع الأقطار وهاجر إليه جماعة من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب قصد زيارته والوقوف على حاله، ولو أطال الله في أمده وزاد في توفيقه لقلب وجه الشرق انقلاباً عظيماً . .».

وقال شاطر البصيلي: «كان لزاماً أن يخرج الشعب للعمل من بين صفوفه قائداً ثائراً وقد وجد الشعب زعيمه في شخص محمد أحمد المهدي، ذلك الفقيه الذي تجاوبت مشاعره مع إحساس الأهلين وتغلبت فيه صفات الزهد والاعتكاف . .».

وكانت تلك أبرز مراحل حركة الشعب السوداني عبر التاريخ توهجاً.

وبتلك المرحلة تأكد اكتمال الوحدة الوطنية في إطار القومية السودانية ونشأت دولة سودانية مستقلة ذات سيادة، وبقيت كذلك ثلاثة عشر عاماً كاملة حتى غزت السودان بريطانيا العظمى بعد تربص وترقب تحقيقاً لمهمتها كدولة

استعمارية طامعة وإرضاءً لغرورها في الانتقام لغردون وهكس وبقية ضباطها الذين أبادتهم جموع الثوار السودانيين في وقت كانت فيه بريطانيا القوة العالمية الأساسية المتحكمة بمصائر دول العالم وشعوبه.

وكان غزو جديد بقيادة كتشنر وكان استعمار جديد قادته بشكل مباشر بريطانيا متسترة بشراكة المصريين فاغتيل استقلال الوطن وقام عهد استعماري جديد عهد الحكم الثنائي وواجه السودانيون من جديد تجربة القهر الأجنبي، فهل تعب شعبنا العظيم أو استكان؟ كلا فإنَّ روح المقاومة في الشعب الأصيل لا تقهر.

مرحلة المقاومة الشعبية:

وبلور الشعب ما ورثته أجياله المتعاقبة في ميراث التحرك النضالي المستمر، كما وعى الشعب المرحلة التاريخية التي يعيشها وتجارب الأمم والشعوب المناضلة واستطاع على أساس ذلك كله أن يبتدع الأسلوب النضالي الذي يناسب ظروفه بعد سلسلة متصلة من الانتفاضات ضد الاستعمار الجديد كانتفاضة ود حبوبة في الحلاوين ١٩٠٨م وانتفاضات تقلى وسنجة وجبل الداير وثورة تلودي ١٩٠٦م وثورة مركز كادقلي وثورة بلاد النوير ومركز فانجاك، ولكن في منتصف سنة ١٩٢٢م نظمت المقاومة بأسلوب يناسب العصر على أيدي شباب منظمة الاتحاد السوداني بقيادة علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين التي تطورت إلى منظمة اللواء الأبيض فكونت

فروعاً سرية شملت كل أنحاء السودان، واتخذت بداية لعملها في المقاومة أسلوب الاحتجاجات ثم المواكب والمظاهرات حتى تبلورت روح التحفز وربطت الشعب كله بقيادة تنظيم اللواء الأبيض.

مرحلة المقاومة المسلحة:

وانتظمت روح الغليان ضد الغزاة المستعمرين، انتظمت القطر كله بعد المظاهرات والمواكب المتصلة التي فجرتها ـ اللواء الأبيض ـ وتطور ذلك إلى مواجهات مسلحة، ففي أغسطس سنة ١٩٢٤ حمل طلاب الكلية الحربية السلاح وخرجوا في مظاهرة عسكرية ضد المستعمرين وفرضوا على الحكام رغباتهم فجابوا أنحاء العاصمة كلها مؤكدين بذلك أوضح تلاحم بين الشعب وشبابه في القوات المسلحة.

وفي نوفمبر سنة ١٩٢٤م تطورت المواجهة إلى ملحمة عسكرية كاملة قادها الملازم عبد الفضيل الماظ حين قاد بلتوناً من الجنود السودانية واجه به كل القوات الانجليزية الموجودة في العاصمة فأدار معركة فدائية استمرت ليّومين كاملين وحصد فيها جند الانجليز ولم يهدأ ولم يستسلم حتى استشهد وكانت تلك ملحمة جبارة قوت تلاحم الجبهات الشعبية وأوصلت روح الاصرار إلى مداها، لذلك فإن القوات السودانية العاملة ضمن الجيش تحركت وتمردت في كل مكان ابتداءً من ١٠ جي أورطة ـ في واو إلى ـ ١٣ جي أورطة سودانية في الأبيض.



المقاومة السودانية تتخذ مختلف الوسائل والأساليب من المعارك المسلحة الى ومواكب الثائرين.

مرحلة التنظيم العصري:

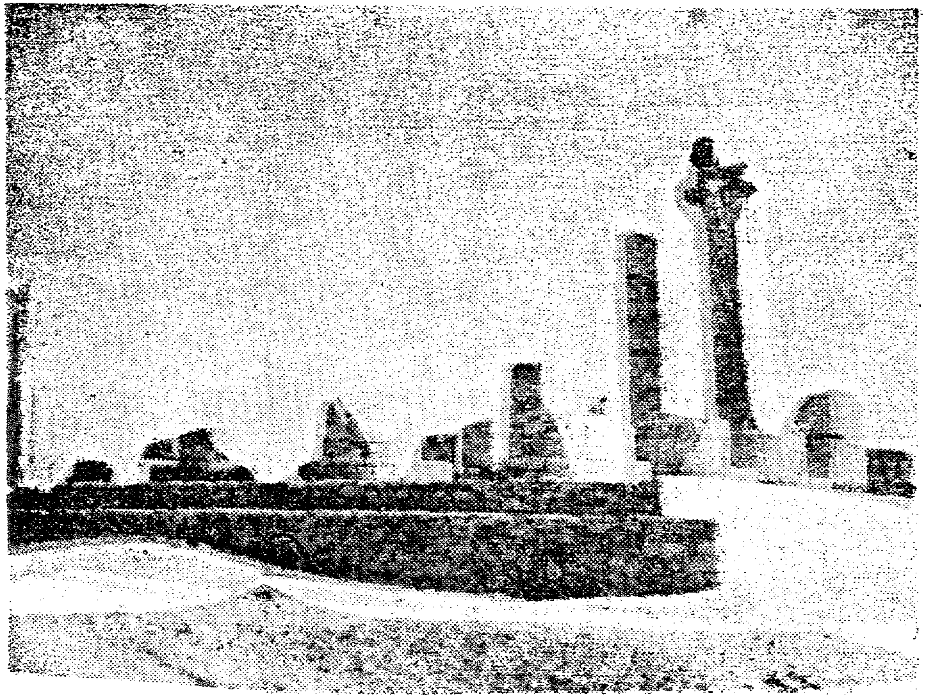
ودخل الكفاح الشعبي في نوفمبر ١٩٣١م مرحلة أكثر التصاقاً بأساليب الكفاح السياسي التي سادت بين الشعوب المستعمرة في ذلك العصر، حين أضرب طلاب كلية غردون ووضعوا بذلك بذرة مؤتمر الخريجين العام الذي انبثق في فبراير ١٩٣٨م على قرار المؤتمر الهندي، وبذلك دخل التنظيم الشعبي وتلاحم الفئات مرحلة أكثر تنظيماً بقيادة الشباب المتعلمين في المدن وطلائع العمال والمثقفين والبرجوازية الوطنية، ولقد تطور ذلك إلى نظام الأحزاب السياسية.

وفي ضحى الأحد أول يناير سنة ١٩٥٦م وصل ذلك الشريط الباسل الطويل من الكفاح المستمر إلى مداه إذ حصل السودان على استقلاله السياسي وجلت قوات الحكم الانجليزية والمصرية عن ثرى السودان وأعلن الاستقلال الذاتي ودخل السودان الحر المستقل فترة جديدة من حياة شعبه.

ثورة اكتوبر الشعبية:

وتعاقبت حكومات حزبية كما تعاقبت برلمانات سودانية على الحياة السياسية والسلطة ولكنها عجزت تماماً عن فهم مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي، وطعنت الشعب في آماله العراض بعد أن رأى كيف تحول نضال الأجيال الشاق على أيدي السياسيين إلى مسخ مزر وصراع للأطماع الشخصية والأنانية الطائفية. ثم زاد الأمر سوءاً استيلاء العهد العسكري العبودي على السلطة الذي لم يفعل أكثر من الاستمرار في

نفس الطريق المقفول في فرض نظام عسكري دكتاتوري يتسم بالجهالة العمياء والغرور الأحمق استناداً على أسنة الرماح أو فوهات البنادق، وكان ذلك جهلاً فاحشاً بتركيب الشعب السوداني، فهو شعب من خصائصه الذاتية عبر الأجيال الكراهية المقدسة لأي شكل للتجبر، وهو شعب من سماته القومية الثابتة الاحتقار للطغيان ومقاومة كل من يحاول إذلاله عن طريق القهر، لذلك تجمع ميراث الأحقاب القومي وتفجر في غضبة عاتية في أكتوبر سنة ١٩٦٤م ضد نظام حكم عبود، فتحول القطر في يوم واحد إلى سعير ملتهب وتلاحم الشعب في جبهة صلدة كما لم يعرف تاريخ الشعوب إلا نادراً وتحركت الجموع نحو معاقل السلطة في العاصمة والأقاليم تتفجر في مواكب ثائرة لا تخشى الارهاب وتقتحم الرصاص، وكانت تلك علامة ضخمة لنوع هذا الشعب وسماته ستبقى درساً عبقرياً يرد كل مستهين بكرامة الإنسان وحقوقه الأساسية إلى رشده، وسقط الفريق عبود ونظامه كثمرة خبيثة وعمل غير صالح.



من آثار النقعة والمصورات
جنوب شرق مدينة «شندي» حيث ازدهرت حضارة الممالك السودانية القديمة.

تأملات في آثار النقعة والمصورات[1]

.. ذلك الكهل النشط.. الأشقر البشرة والشعر والاهاب والذي بدأت لفحات شمسنا المحرقة تبصم طابعها على ملامحه فترسم خطوطاً سمراء (كالمحروقة) على جبينه..

ذلك الكهل المثابر.. المكتسي بكل جدية ومهابة العلماء هو الألماني البروفسور دكتور فرتز هنتزه[2] مدير معهد الدراسات المصرية القديمة في جامعة همبلت (Humbolt) في برلين: المانيا الديمقراطية، وهو كذلك عضو الأكاديمية الألمانية للعلوم ـ ببرلين ـ وهو أخيراً رئيس البعثة الألمانية للتنقيب عن الآثار بشمال السودان منذ سنة ١٩٥٨م.

---

(١) نشر المقال في عدد يونيو ١٩٦٨م من مجلة الخرطوم إثر عودة أول بعثة لجمع التراث الشعبي ترسلها وزارة الاعلام والشؤون الاجتماعية آنذاك، وكانت لمنطقة شندي وضواحيها بالشمالية.

(٢) كان هذا العالم الألماني الشرقي الدكتور Fritz Hintze وبعثته يعملون في ظروف صعبة أقساها عدم الاعتراف الرسمي بحكومته وبالتالي انعدام التمثيل السياسي، ومع ذلك واصل جهوده حتى تغيرت كل تلك الظروف ونجحت جهوده العلمية كما يظهر ذلك ـ الآن ـ جلياً في بعض معروضات المتحف القومي بالخرطوم.

إنه هنالك منذ سنوات: في تلك البقعة الخلوية والجبلية على أطراف الصحراء، على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوب شرقي مدينة شندي في منطقة (مصورات النقعة) الأثرية.. تصحبه زوجته العالمة والباحثة، يوصلان ليلهما بالنهار في عمل متصل في وهج الشمس، ثم يأويان إلى كوخ خشبي على حافة التلال يترجمان ويسجلان ويحللان ما أسفر عنه عمل اليوم في التنقيب في الآثار والحفريات. كل ذلك من أجل الوصول باستقراء نتائج الحفريات وتركيبات ما تبقى من حجارة ورسومات إلى خيوط من ضوء تفتح كوة من نور تمكن من الوصول إلى حقائق التاريخ على أرض السودان منذ أقدم العصور، منذ مملكة مروى القديمة في سنة ٣٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ٣٥٠ ميلادية، حيث لا تزال كثير من حلقات تلك الحقبة التاريخية الطويلة والقديمة مضطربة تحتاج للكثير من الجهد في الاستقراء والتحليل ليستبين ما ظل مجهولاً منها حتى اليوم، ولتستقيم بعد ذلك سلسلة تاريخ تلك الفترة المجيدة استقامة تمكن من إيقاف تاريخ السودان القديم على عمد أصلد وأدعى لليقين.

إن الحياة على حافة الصحراء.. واتصال العمل الشاق نهاراً وليلاً ثم الايواء آخر الليل إلى كوخ خشبي.. وحيد.. لا تقع العين من حوله على أي أثر لحياة بشرية، وامتداد ذلك النوع من الحياة في الصحراء لأيام وشهور وسنين طويلة وبالنسبة لأناس قادمين من قلب حضارة القرن العشرين من أواسط أوروبا لا بد أن يجعل الإنسان (أي إنسان!) يتأمل بعمق

هذه الدلالة . . . كما انه بالنسبة لجيل المتعلمين من نفس أهل السودان لا بد أن تعني هذه الدلالة (تأملات) أكثر جدية في معنى الحضارة ومعنى معايشة مفاهيم العصر ومعطياته . . بل ومعنى (الولاء) ذاته: للحلم وللإنسانية وللأوطان . .[1].

وإذا كنا كلنا تقريباً لم نحاول أن نعرف ماذا تعني بقية من آثار وأبنية وقصور (مجدوعة) في أطراف الصحراء في تلك البقعة البعيدة عن مجرى النيل، فإن أناساً غيرنا من أبناء حضارة عصرنا لن يغمض لهم جفن وتاريخ الإنسان ومدنياته القديمة مدثور يكتنفه الغموض والجهل واللامبالاة في جزء من هذه الدنيا . . حتى وإن كان ذلك الجزء من الدنيا في قلب أفريقيا بشمسها المحرقة وطبيعتها القاسية التي لم يألفوها في أوطانهم . . ومن أجل ذلك شدوا الرحال وأقاموا في منطقة (المصورات والنقعة) على أطراف الصحراء تاركين وراء ظهورهم حياة (برلين) بكل ما تعنيه في تصورات الكثيرين . .

. . تلك كلها كانت مشاعري وأنا فوق الربى، فوق التلال في منطقة الآثار (في النقعة) أولاً . . ثم في (المصورات الصفراء).

وحولنا تشمخ أكبر بقايا آثار مملكة مروى القديمة . . محاطة بسور من الحصون العالية، يحيط ببقايا الهياكل الرائعة

---

(١) إننا لا زلنا ندعو إلى تأمل هذه الدلالات . . اننا لا زلنا ندعو التربويين والمعلمين لإدخال الأجيال الناشئة إلى دائرة التربية الوطنية الحقة وجعل الاعتزاز بالسودان هو الركيزة الأساسية لأية معارف يراد بها أن تخدم هذا الوطن . .

للمعابد بمذابحها وأعمدتها، وأبهية القصور الفخمة، حيث لا يزال المؤرخون يبحثون عن نوع تلك المدينة المزدهرة: هل كانت كلية A College كما قال بعضهم أم كانت موضعاً لمستشفى ريفي كما زعم آخرون.. وحيث يحاول الدكتور هنتزه وزوجته وأعوانه أن يسهموا ضمن حفرياتهم بمعلومات أوفر يمكن أن تحدد (نوعية) تلك العمارات والأبهية.. داخل ذلك السور الحجري الحصين في منطقة المصورات.. حيث لا يزال البهاء وعبقريته المعمار تشير للشأو العظيم الذي بلغته حضارة النيل البعيدة في سلسلة التاريخ السوداني.

كانت تلك مشاعري وأنا هناك ضمن مهمة هدفها (جمع التراث القومي).. هكذا كان هدفها، ولكنها في البداية لم تكن تعني في أذهان الكثيرين إلا (تسجيلات) لبعض أبيات الدوبيت وربما (تسجيلات) لنصوص أخرى لأنواع أخرى من القصيد من منطقة شندي بهدف (جمعها) وربما ليحفظها البعض ويعيد ترديدها بعد ذلك من أجل (النغم) الموجود فيها.

ولكن الصدفة وحدها، مكنت آخرين من ذوي اهتمامات أكثر عمقاً وجدية من أن ينضموا لتلك المهمة، برؤية للصورة تختلف عن (الحدس) العفوي عند الآخرين.. وبذلك وظفوا اهتماماتهم في انطلاق بعيد (يحاول) أن يستجمع من نصوص القصيد الشعبي والمدائح والدوبيت صورة متكاملة تشكل تفسيراً لحياة الناس وتاريخهم وحضارتهم وآمالهم وتطلعاتهم، منذ عاشوا على تلك الرقعة من أرض الوطن السوداني..

ولذلك كان منطقياً أن تنطلق الرؤى وهي تجوس في تراثنا الشعبي في منطقة شندي، أن تنطلق مع الزمن تحاول فهم الأصول، كما ترويها وتعبر عنها حضارة مروى القديمة التي ازدهرت في التاريخ القديم في تلك المنطقة.

وكانت تلك الوقفة المتأملة في النقعة والمصورات.

.. وكانت تلك المشاعر.. فوق الربى.. والتلال امتداداً لمحاولة الغور واستجماع ملامح صورة (وحكاية) تطور حياة الإنسان منذ القديم على ذلك الثرى: تقدماً وتخلفاً واضمحلالاً وازدهاراً، حتى بلغت الملامح بالوطن وساكنيه هذه الصورة التي نعيشها اليوم.

وذلك الكهل النشط.. أشقر البشرة والشعر والاهاب المكتسي بكل جدية ومهابة العلماء.. والقادم من برلين من ألمانيا الديمقراطية.. يعمل.. ويعمل منذ سنة ١٩٥٨ ليساعد في استكمال ملحمة التاريخ كما دارت في ذلك الزمن البعيد في تلك المنطقة من أرض السودان.

ولنستمع إليه ذلك (العالم الألماني) يحدثنا عن تاريخنا.. قال الدكتور هنتزه:

«إنَّ بلدكم هذا السودان واحد من أقدم مواطن المدنيات العريقة في التاريخ القديم إذ عرف منذ عرف امتداد نفوذ مصر القديمة إلى الجنوب.. ويمكن تقسيم حقب ازدهاركم القديم إلى خمس فترات تاريخية هي:

أ ـ بلاد النوبة كجزء من نفوذ الممالك المصرية القديمة.

ب ـ وبلاد النوبة كمستعمرات للممالك المصرية القديمة.

جـ ـ بزوغ الدولة السودانية المستقلة في (كوش) وامتداد نفوذها إلى مصر.

د ـ الدولة المروية القديمة المزدهرة.

هـ ـ اضمحلال الدولة المروية والممالك النوبية المسيحية الثلاث.

هذا وتمتد هذه الفترات التاريخية إلى عصور قديمة وطويلة وهي (٤٣٠٠) سنة تقريباً تبدأ منذ ٢٨٠٠ قبل ميلاد المسيح إلى سنة ١٥٠٠ ميلادية.

وهنالك الآن مسؤولية ذات شقين:

أولاً: العمل على الاحتفاظ والاهتمام بالآثار في هذه المنطقة بوصفها أصلاً من أصول الذات السودانية في طريق تطورها وانبثاقها عبر التاريخ.

ثانياً: من أجل الاحتفاظ لتاريخ الإنسان وحضارته بجزء لا يتجزأ من تاريخ وحضارة البشر على ظهر هذا الكوكب.. وإن مساهمة جمهورية ألمانيا الديمقراطية وأكاديمية العلوم الألمانية ببرلين.. المتمثلة في الجهود المبذولة الآن في التنقيب والحفريات، إنما تأخذ بجدية أمام ناظريها هذه المسؤولية ذات الشقين للوطن السوداني ولتراث الإنسان.

إن الاكتشافات الأثرية بالنسبة لمصورات النقعة بسورها

الحجري الحصين كمجرد اكتشاف، كانت معروفة منذ القديم ولكن تضارب التفسيرات المزدهرة التي لا تزال بقاياها شامخة داخل ذلك السور هي التي تدفع بالمنقبين وعلماء الآثار للمزيد من اكتشاف وتحليل الحقائق عن طريق المزيد من الحفريات، وقراءة الرسوم والبحوث والرموز والكتابات القديمة داخل الجدران وبقايا الحجارة، ولعله من أعظم الخطوات الناجحة التي تمت حتى الآن في هذا المجال أن البعثة استطاعت أن تبرز تماماً من ركام الأتربة والحجارة عشرة صفوف من الأبنية الفاخرة ذات الأبهاء الجميلة في تلك المدينة داخل السور الحصين، وهنالك شمالي شرقي تلك المدينة الأثرية يقبع معبد عتيق مشهور هو (معبد الأسد Lion Temple) ولقد كانت أجزاؤه العليا تحطمت بفعل الزمن وعوامل التعرية Agents of denudations، ولكن شاءت الظروف الحسنة أن توفق البعثة أثناء التنقيب حول المعبد وفي داخله إلى اكتشاف كل (القطع) الحجرية المتقنة التشذيب مدفونة بطبقة سميكة من الرمال والحصى، وأمكن إزالة تلك الطبقة واسترداد حوالي (ستمائة) قطعة صخرية بكامل هيئتها كما كانت فوق حيطان المعبد، كما أمكن بالأسلوب العلمي التوصل إلى موضع كل صخرة من تلك الصخور كما كانت فوق ذلك البناء الهندسي المهيب، وأعطيت الآن نمراً مسلسلة لإعادة ترميم كل المعبد[1] ليعود

---

(١) أنجز الآن بالفعل ذلك العمل العلمي القومي والإنساني الكبير، وهكذا لحضارة عصرنا جوانبها الوضاءة المشرقة متمثلة في التعاون الدولي المرتكز على إخلاص الخبراء والعلماء.

مرة أخرى مثيراً مدهشاً دلالة على عظمة حضارة أبناء النيل في السودان منذ ذلك الزمن البعيد، ودليلاً أكيداً على عظمة فن المعمار في مروى القديمة. . والأهم والأجد كذلك ضمن تلك الاكتشافات التوصل نهائياً إلى معالم ثابتة في طريقة نحت الآلهة. . وأسلوب القرابين بصورة تختلف تماماً عن كل ما هو موجود ومعروف في الآثار المصرية القديمة مما يفتح المجال أمام الباحثين لاكتشاف هذا الأسلوب التعبدي والهندسي الخاص بالحضارة المروية. . وأنه وإن كان الإله Apedemak وهو الإله الأسد Lion God معروفاً في الديانة المروية القديمة. . إلا أن الاستقراءات الجديدة أثبتت أنه يرمز إلى إله عندهم (للحرب وللحماية) وله تسبيحاته (تراتيله Hymn) الخاصة به، كما أن القراءات في النحوت والرسوم والكتابات في هذا المعبد تثبت سبق الحضارة المروية على الحضارة المصرية في التعرف على كثير من النباتات (كالدخن) مثلاً وكذلك سبقها في تأليف الأفيال الأفريقية واستعمالها ضمن المعارك الحربية، كما هنالك دليل على ازدهار (نوع) من الكتابة متميز خاص(٢) بالحضارة المروية، كما تعبر عنه كتابات ورسومات معبد الأسد والمدينة المسورة القديمة في المصورات. . وكل ذلك انما يشير لتأكيد دلالات تاريخية هامة بالنسبة لتاريخ المدنية القديمة في مروى، هذه المدنية السودانية القديمة التي نشأت في منطقة منتصف نهر النيل، في نفس

---

(١) اللغة المروية وهي لغة سودانية قديمة أصيلة.

الفترة التاريخية ـ تقريباً ـ التي زاد فيها اتصال الحضارة الاغريقية (أثينا) ببلاد ما حول البحر الأبيض المتوسط.. ويلاحظ شبهٌ في تطور الحضارتين (على البعد بينهما) ولكن (مروى) في عهود ازدهارها ـ تماماً كأثينا ـ نشطت فيها التجارة فتعاملت مع أمم شتى واستطاعت أن تنجز وتبرز بشكل كامل سمات تقاليدها في الفنون والآداب، ونقلت تلك السمات لأمم كثيرة حولها متأثرة بذلك سلباً وإيجاباً بما في ذلك قواعد السلوك والمعتقدات، وأنها كذلك وكما حدث للحضارة الاغريقية، مرت بفترات البزوغ والازدهار ثم التوسع والنفوذ وأخيراً الاضمحلال والتمزق، ولكنها ككل الحضارات القديمة تركت بصمتها عميقة واضحة في ميراث المدنيات القديمة.

.. وبعد:

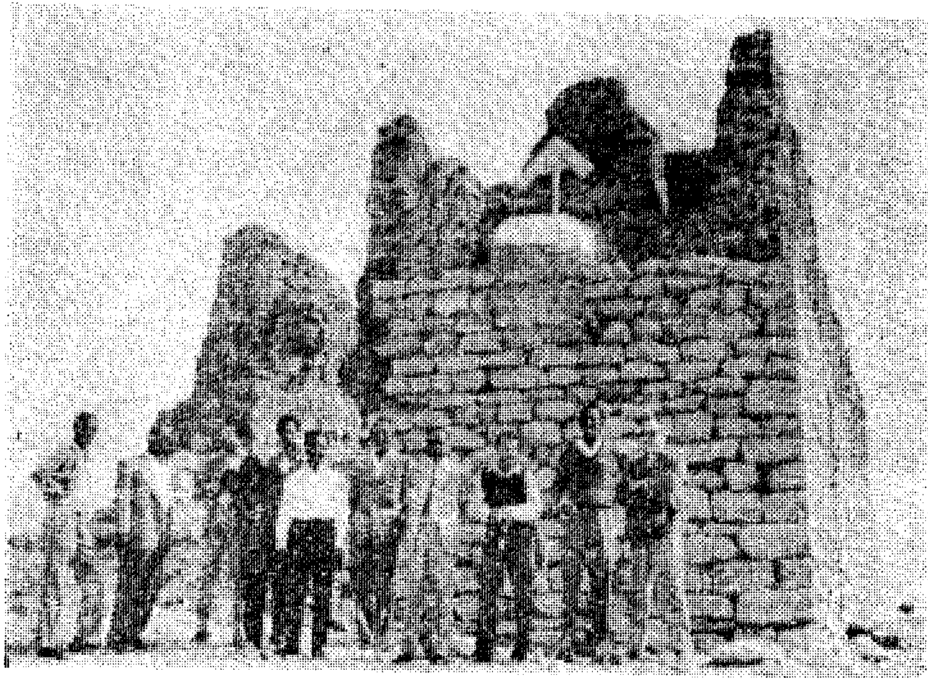
فإن الأهمية القصوى للجهد الصامت الجاد الذي يجري في الحفريات والتنقيب وإعادة تركيب معبد الشمس وكل تلك الجهود المبذولة هناك على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوب شرق مدينة شندي في بداية امتداد الصحراء.. هناك في منطقة مخلفات مدينة مروى القديمة المتمثلة في آثار النقعة والمصورات، إنَّ تلك الجهود تكتسب الأهمية القصوى بالنسبة لهذه الفترة التي نعيشها من تطور السودان[1]، هذه الفترة التي تحاول بعض المفاهيم السياسية والديماجوجية فيها أن تسقط من حسابها أن للوطن السوداني، تاريخاً عريقاً وقومية

---

(١) منشور بتاريخ يونيو ١٩٦٨م (مجلة الخرطوم).

متميزة.. وحضارة مزدهرة منذ القديم..، فلماذا نحاول أن نطفىء الشمس فنذيب كيان الوطن وننهي تراثه الحضاري والذاتي!!

إن ابراز وجه السودان المتطلع للتنمية والتقدم واحتلال مكان بين الأمم العصرية لا يمكن أن نجد له الصيغة القادرة على تحريك كل الطاقات إلا إذا تعمقنا وفهمنا كل ما يجري في عروق شعبه من ميراث قديم وأصيل.. ومن هنا تبرز الأهمية القصوى لاستقراء وبعث تاريخ الأصول السودانية مهمة قصوى أمام كل مخلص ومفكر.. وتواق لأن يرى الوطن يسير في طريق صحيح وأصيل.



منطقة الآثار بالبجراوية «شمالي شندي»

بقايا الحضارة المروية القديمة التي سادت طويلاً منذ قبل ميلاد المسيح وتفاعلت مع الحضارات القديمة حتى بلورت حضارة سودان تلك الحقبة في الفنون والآداب والتقاليد والعادات . . .

تأملات في آثار البجراوية[1]

روعة الفن الهندسي في الهياكل والمعابد والأهرامات
بيرمنجهام السودان التي نقلت لأفريقيا السوداء صناعة الحديد

يوم ٦ مايو الماضي، كان يوم اعلان نتيجة الانتخابات. . وكان يوم «مشغولية» بالفعل للناس في كل القطر. وأما لماذا ينشغل الناس بتلك الدرجة في مثل تلك الأشياء مع أنهم جميعاً يحدثونك ـ عندما يكونون على سجيتهم ـ عن سأمهم واستهجانهم بلعبة الكراسي التي طالت واستطالت دون طائل ولا أمل فيها. . غير امعان تلك القلة المحترفة للعبة في المزيد من الدجل على حساب حياة وطن. . وتعاسة شعب. . في زحمة من شعارات متآكلة جوفاء. . ملها كل الناس، أما لماذا إذن ينشغلون ـ أهل هذا القطر ـ في مثل هذه الأشياء التي خبروها واحتقروها. . فهذا ما يحتاج لتفسير أعمق. . ربما يجلوه كر الليالي. . ربما يتحدث عنه التاريخ عندما يتحدث يوماً. . تماماً كما تحدث في تلك الليلة من أكتوبر[2]. . وحينما اختار «التاريخ» فناء جامعة الخرطوم. . وأطل بقوة وبامعان على ساحة الزمن. . مفاجئاً مربكاً لكل أولئك الذين كفروا بالشعب وبمقدرته المحسوبة على الصمت والسكوت. .

تلك كانت المقدمة، وأرجو أن تظهر صلتها بالموضوع. .

---

(١) نشر بصحيفة الأيام عددها رقم ٥٣٥٥ بتاريخ ٢/٦/١٩٦٨م.

(٢) إشارة لليلة أكتوبر العظمى ـ ٢١ أكتوبر ١٩٦٤م ـ حين أصيب الطالب الشهيد القرشي وحين استبسلت الجامعة السودانية ـ كتقاليدها ـ عندما يحيق بالوطن الخطر. . .

ففي ذلك اليوم الذي انشغل فيه الناس جميعاً بنتائج الانتخابات، أتيح لي أن أزور مع بعض الاخوان منطقة الآثار في البجراوية شمالي كبوشية، كجزء من مهمة لجمع التراث الشعبي والتعرف عليه بكل فروعه في منطقة شندي.

وما كنت أحسب ـ على كثرة ما سمعته عنها ـ أن البجراوية وآثارها العظيمة بتلك الدرجة البالغة من الثراء.

ما كنت أحسب أننا نمتلك في هذا الوطن أمكنة مكرمة معززة يمكن أن تملأ الفؤاد والقلب.. وتعمر قلب كل كافر بهذا الشعب وتاريخه وأمجاده وعراقته فتعيده إلى الإيمان بالوطن قبل الإيمان بأوطان الآخرين.

وبعد ذلك وطيلة ذلك اليوم من مايو، فإن البجراوية ومعانيها البليغة الضخمة ارتفعت بي فوق الانشغال بنتائج الانتخابات ولعبة الكراسي.

وبقي صوت العم عثمان حارس البجراوية الأمين، هو وحده الذي ينساب شامخاً في أذني.. وبقي صوت (فتى الفتيان) ذلك الشاب من القيادة الشمالية[1] في شندي والذي جمعتنا به فقط مشاعر الانفعال الحقيقي ونحن على الذرى وبين الشوامخ بين بقايا القصور والمعابد والأهرامات.. فانطلق الشاب المحب لتاريخ بلده، والذي تعود أن يلوذ بأمجاد البجراوية، يملأ النفس إيماناً بأصول الشعب.. ولذلك حفظ

---

(١) كان ذلك في مايو ١٩٦٨م، وكان ذلك الشاب ضابطاً بالقيادة الشمالية.

عن ظهر قلب.. خبايا تلك الآثار ودلالاتها وأخذ يتبرع بالشرح إلى جانب العم عثمان.. مكملاً.. أو مصححاً..

بقي ذلك الصوت في ذلك اليوم هو المسيطر على مشاعرنا، وفي عقولنا انطبعت صورة تلك المشاهد.. الهياكل الرائعة.. المعابد الفخمة.. الاهرامات المعجزة، كلها مشيدة كأروع ما يكون الفن الهندسي، مشيدة فوق التلال الجبلية العالية وعليها خطت في أمتن وأزهى شكل، الرسومات والكتابات منحوتة في الداخل والخارج.. وكل ذلك محتفظ ببهائه، وعظمة تشييده.. ومقدرته الفذة على جذب القلوب في جو من الانفعال الحقيقي.. بين مشاهد تشعرك بالامتلاء بالحياة.. وكأنها لم تشيد إلا منذ زمن قليل.. مع أن عمرها يحسب الآن بآلاف السنين.. لقد بقيت بكل البهاء والنضارة.. تروي للأجيال بصدق حضارة أبناء النيل المبكرة الرائدة حين لم يكن لأصحاب حضارة عصر الفضاء الحالية مكان يذكر بين حضارات الشعوب، ولكنها ـ حضارة النيل المبكرة في السودان ـ هي بنت الإنسان على أي حال، تشرفه في كل مكان.. ولذلك لم ينس العم عثمان، أن يكرر علينا كيف أن المئات من الأوروبيين يأتون من بلادهم خصيصاً للامتلاء بالبجراوية وكنوزها الرائعة التي بقيت على مدار الزمن متحدية لكل عوامل التعرية الطبيعية لتحكي لإنسان القرن العشرين الميلادي حضارة ما قبل ميلاد المسيح.. على أرض السودان، لم ينس العم عثمان أن يذكرنا بهذا.. وأن يتحسر لأن السودانيين وحدهم هم الذين لا يأتون إلى البجراوية.. خاصة المسؤولين والذين

كان ينتظر منهم أن يكونوا أكثر تفهماً وأكثر حرصاً على الامتلاء بتراث شعبهم.

إنَّ التاريخ المكتوب يعرف أن حضارة مروى القديمة (البجراوية) كانت معروفة جيداً للإغريق والرومان في عصور ازدهارهما. ولقد ذكرت كثيراً في كتبهم القديمة بوصفها عاصمة تجارية مزدهرة، منذ أن انتقل فرع من الأسرة المالكة من نبتة عاصمة المملكة السودانية (كوش) وذلك عندما كان نفوذ المملكة السودانية ممتداً شاملاً لأغلب وادي النيل ـ بما فيه مصر ـ وأخيراً وعندما انحسر النفوذ السوداني عن مصر فإن مروى القديمة صارت عاصمة لكل السودان المعروف.. كان ذلك حوالي القرن السادس (قبل الميلاد) واستمرت مزدهرة حتى سنة ٣٥٠ ميلادية.. عندما اجتاحها الأكسوم..

وهناك في مروى القديمة، لا تزال القصور الملكية بتماثيلها ونحوتها وزيناتها.. ولا يزال ذلك الحمام الشهير المشيد على الطراز الروماني يحتفظ بكل بهائه وقنواته.. ولا يزال المعبد الآموني المهيب بمداخله المحروسة.. وأعمدته الرائعة، عامراً يكاد ينطق مهابة وعظمة.

وبالقرب من مخلفات المدينة القديمة، لا تزال بقايا (منجم الحديد) والذي أكد حقيقة ازدهار صناعة صهر وتعدين الحديد بصورة تامة في مروى القديمة، حتى إن المؤرخين الأجانب أطلقوا عليها مؤخراً (بيرمنجهام) السودان.. مشيرين إلى حقيقة أن أفريقيا السوداء عرفت هذه الصناعة عن طريق مدنية السودان في تلكم العهود.

هناك أيضاً معبد الشمس العظيم الذي وصفه المؤرخ القديم هيرودتس، وخلفه تقع ثلاث مجموعات من الأهرام. . والمقابر الخاصة بالملوك والملكات وكبار رجال الدولة المروية.

وبعد:

إنني قبل أن أدعو مصلحة الآثار بالمساعدة مع مصلحة السياحة ومصلحة الشؤون الاجتماعية(١) لأن يفعلوا شيئاً سريعاً كحد أدنى للتعريف بذلك التراث. . وبذل جهد ما. . لابرازه.

قبل ذلك أتجه بالحديث للأساتذة الذين عهد إليهم بتخطيط منهج جديد للتربية الوطنية أنني أعيذهم أولاً عن الاندفاع وراء الشعارات السياسية الوقتية. . التي تريد أن تسخر هذه (المادة)(٢) في خدمة الشعارات بنفس أسلوبهم المعوج في الاتجار بالشعارات، وأطلب إليهم أن تكون البجراوية ودلالاتها. . وتاريخ الأصول السودانية في حسبانهم، ليستطيعوا بعد ذلك تشخيص وابراز السمات الحضارية الخاصة بهذا الشعب، وأطلب إليهم أن يمكنوا النشء الجديد في

---

(١) أشير هنا إلى أن وزارة الاعلام والشؤون الاجتماعية في ذلك الوقت ١٩٦٨م استجابت لذلك النداء بمبادرة مديرها آنذاك وأنشأت شعبة خاصة للثقافة الشعبية أسهمت ضمن مهامها بتصميم لوحات فنية تعريفية أهديت لمصلحة الآثار فنقلتها هذه إلى تلك المنطقة الأثرية وهي تقف حتى الآن هناك.

(٢) إشارة للحديث الذي كان يدور في يونيو ١٩٦٨م عن خلق مادة التربية الوطنية للمدارس السودانية مخضعة لولاءات متضاربة.

السودان من التعرف الحي بتاريخ بلادهم القديم. فلا بد من تهيئة دروس على الطبيعة، بين الآثار في مروى.. ونبتة والبركل والمصورات.. حتى ندرك النشء الجديد.. ونضمن جيلاً مرتبطاً أولاً وفي الأساس بهذه الأرض شعبها وتاريخها، قبل أن يرتبط بتاريخ الآخرين وأمجاد الآخرين، فينشد مثله الأعلى بعد ذلك هناك وليس هنا...

شخصيات سودانية

عبد الله جمّاع:

قال الشيخ عبد الدافع: وانتقل الفونج من جبال الجنوب إلى موره المجاور لجبل سقدي على مقربة من سنار.. وكان كبيرهم عماره ود دنقس وفي جوارهم قبيلة من جهينة تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد البأس يقال له عبد الله جماع...

صفحة ٧٢ من كتاب تاريخ السودان لشقير طبعة سنة ١٩٠٣م.

«نشر المقال بمجلة الخرطوم عدد يونيو ١٩٦٩م».

كان ذلك بداية التعريف بالشيخ عبد الله جمّاع كما أورده نعوم شقير ناقلاً عن رواية صاحب تاريخ الفونج الشيخ (عبد الدافع) وبمناسبة اقتراب مرور القرن الخامس على الحلف العبدلابي الفونجي الذي قامت على أساسه أول دولة مركزية للسودان المعروف واستمرت منذ ١٥٠٥م حتى ١٨٢١م عندما غزا محمد علي باشا السودان وقامت دولة الحكومة التركية في أول استعمار أجنبي للسودان الأوسط. فإننا بتلك المناسبة نقف بهذا المقال لنستعيد ذكرى رجل دولة عظيم من رجالات الوطن العظام مضياً مع هدف بعث الحياة

من جديد في الأمجاد التي صنعها العظام على مر التاريخ على ثرى هذا الوطن.

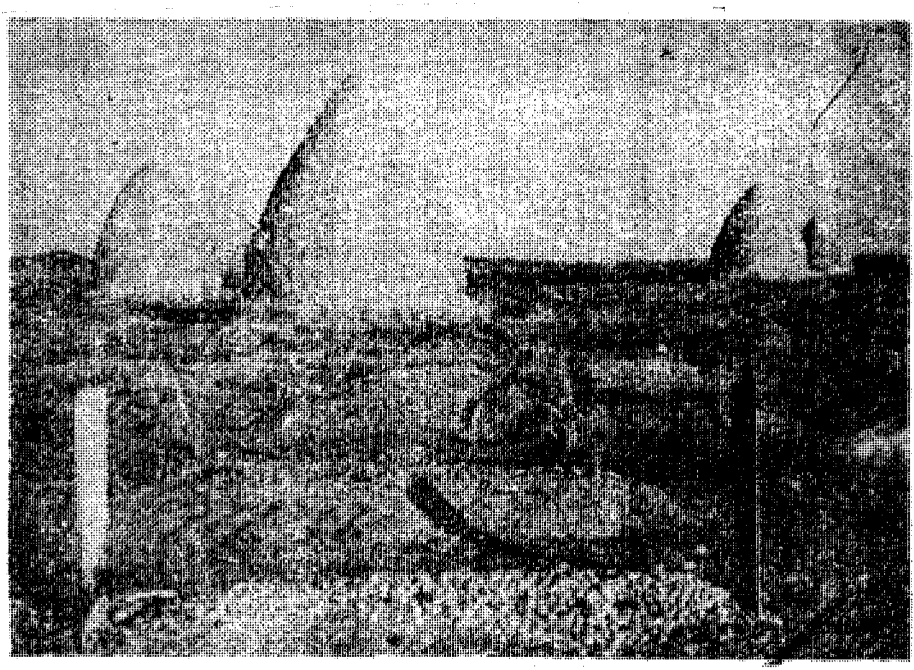
والرواية الوحيدة المفصلة عن عبد الله جماع، هي تلك التي تحتفظ بها سلالته من مشايخ العبدلاب[1]، رتقول الرواية مفصلة لأصل الشيخ عبد الله:

ينحدر الشيخ عبد الله في أصوله الأولى من بيت عربي معروف بمكة المكرمة يعرف ببيت بركات، وكان حاكم مكة في القرن السابع الهجري ويدعى الشريف أبو نمى كان ينتمي لهذا البيت.

ولقد هاجر والد الشيخ عبد الله، وهو الشريف محمد الباقر، في أوائل القرن الثامن الهجري من بلاد الحجاز إلى السودان، وهو من جهينة ونزل في السودان بميناء سواكن، وتزوج هناك من السيدة حسنى بنت عبد الله القرين بن أحمد بن أبي بكر قاسم بن رافع، وأنجب منها من الأبناء عبد الله جد العبدلاب ومسمار جد الرازقية بحوش بانقا وحمد الله جد النافعاب ببربر... الخ.

---

(١) الإشارة هنا لمخطوط العبدلاب، خاصة نسخته التي كان يحتفظ بها المغفور له مولانا الشيخ عثمان محمد أونسة، حفيد الملك عجيب المانجلك، وكان رحمه الله هو مصدري الأول وموجهي هذا الاتجاه في «محاولة» ادخال مسيرة عظماء بني السودان لمجرى الحياة الحي بعد أن جمدت وأجهلت بفعل الأجانب ثم أنصاف الأجانب وغيرهم وغيرهم...



القباب والأضرحة

سمة معروفة في كل السودان.. تدل على إعزاز الناس لصاحب الضريح، فهي تضم رفات مشاهير الوطن: أبطاله والزعماء ورجاله الأتقياء الصالحين..

أما ابنه عبد الله ـ موضوع حديثنا الآن ـ فقد نشأ فتى متفتح الذهن مبكر النبوغ، لذلك صمم والده على أن يمكن فتاه الواعد من الرعاية الواعية فأخذه وهو بعد في السابعة من العمر عائداً به إلى مكة المكرمة، عابراً البحر الأحمر من سواكن بصحبة قافلة تجارية على مركب شراعي، وهناك أودعه كتّاب أحد مشاهير العلماء موصياً عليه.. متنبئاً له بدوره العظيم الذي كان فعلاً ينتظره في حنايا الأفق البعيد على الضفة الأخرى من بحر جزائر دهلك (البحر الأحمر).

ونشأ الفتى عبد الله في كنف ذلك العالم الحجازي الشهير، حفظ عليه القرآن وتلقى علومه الفقهية والشرعية وتمرس بشتى المعارف، ثم جاب أنحاء تلك البلاد وبقي على ذلك حتى بلغ الثالثة والعشرين من العمر فبدأ رحلة العودة عابراً البحر مرة أخرى إلى الغرب إلى سواكن في بلاد السودان وهناك توفي والده ودفن بسواكن.

وبدأ الشاب عبد الله يشق طريقه في الحياة.

وبدأ بمزاولة التعليم بين أبناء عمومته من جهينة وبني خؤولته رفاعة ثم وسع من نشاطه التعليمي وسط كل قبائل شرق السودان. فبرز الشيخ عبد الله واجتمع عليه محبو المعرفة في أمور دينهم وفقه شرعتهم وأخذ يتجول في الأنحاء بتلاميذه حتى عبر وادي نهر الأتبرا إلى منتصف السودان نهر النيل ثم إلى سوبا: عاصمة مملكة النوبة المسيحية على النيل الأزرق.

وهناك وجد الشيخ عبد الله مناخاً اجتماعياً ذا طابع

جديد، كانت المشاعر وسط البطون والأفخاذ من المسلمين والعرب الذين حطوا في تلك البقاع تغلي بالتحفز ضد المملكة النوبية المسيحية، خاصة وقد دخل تلك المملكة الوهن الشديد في أيامها الأخيرة الكئيبة حيث وصفها بإيجاز بليغ الدكتور شبيكة بقوله[1]:

(ضعف أمر المملكة المسيحية وانقطعت صلتها بمصر وروما ونشأ جيل جديد لا هم مسيحيين ولا هم بمسلمين، وكذلك العرب الذين شاركوهم الديار كانوا ضعاف العقيدة الإسلامية وأغلبيتهم الساحقة تجهل أسس التعاليم الإسلامية، فاتفق بذلك صاحب الدار مع المهاجر في الجهل بأمورهم الدينية.. الخ).

وجد الشيخ مراجل التحفز تغلي طمعاً في استغلال فرصة وهن الدولة النوبية صاحبة الدار بمراعيها المنبسطة ونيلها الأزرق الصافي، وبأرض ما بين نهر النيل والاتبرا ببطانتها المعطاء، وكان ذلك إلى جانب الطقس المعتدل والخريف المنتظم، إغراءً لا يقاوم بالنسبة لقوم رعاة يتبعون مواضع الماء والكلأ ويكيفون على أساسها حيواتهم.. هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى فقد كان يخشى جيل المهاجرة الأول على جيلهم الجديد مما رأوه يتفشى من جهل بأمور دينهم الأساسية مما يهدد بذهاب ريحهم ولا سند ولا قوة للأعراب بدون هذا الدين الحنيف.

---

(١) الدكتور مكي شبيكة (السودان في قرن).

لذلك كله كان مقدم الشيخ التقي الورع نسمة أمل كبرى. وكان الرجل عالي الهمة سديد الرأي واسع الإدراك، فاستطاع بسهولة أن يلم بالمناخ النفسي الاجتماعي السائد في تلك المنطقة فلم يتوان ولم يتأخر بل شمر عن ساعد الجد ورفع أمام كل البطون والأفخاذ العربية المسلمة شعاراً واحداً هو (التجمع على كلمة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) صلعم.

وبدأ تجوالاً لا يهدأ يعمق بينهم دعوته واعداً إياهم بكل الخير إذا اجتمعوا وتوحدوا منذراً لهم بما ينتظرهم من ضياع إذا استمروا في تفرق وتشتت.

ووجدت دعوته مناخها المناسب فبدأت البطون والأفخاذ خاصه من جهينة، التي عدّ لها المقريزي[١] أكثر من خمسين فخذاً منتشرة حول سوبا، بدأت تصيخ السمع وتتجمع على الشيخ الورع، وتبعتها قبائل وبطون رفاعة وربيعة ومضر ولخم وطي وقيس عيلان... الخ، وتعاهدوا بذلك على أن يتبعوا دعوة التلاحم والتعاضد تحت راية الداعية الورع الشيخ عبد الله بن محمد الباقر وأطلقوا عليه منذ ذلك الحين لقب (جماع) مستمداً من دعوته في جمع شملهم فصار يدعى (الشيخ عبد الله جماع).

وبدأت بهذا مرحلة جديدة في تاريخ الشيخ عبد الله. لقد انعقد له لواء الرياسة على القبائل العربية التي دخلت السودان وكان ذلك بالنسبة للشيخ الورع فاتحة لعهد جديد أسمى بكثير

---

(١) المقريزي عد اثنين وخمسين فرعاً لجهينة هذه. انظر الخطط للمقريزي.

من مجرد تحقيق رغبات الرعاة الاعراب في ضمان السهول المنبسطة بعطائها الدفاق وضمان الماء العذب في الاتبرا وشواطىء النيل الأزرق ونهر النيل. . كان ذلك بالنسبة للشيخ عبد الله جماع فاتحة عهد جديد ترتفع فيه رايات الدعوة الإسلامية في وقت بدأت فيه رايات الدعوة المسيحية تنطوي إيذاناً بالنهاية والسقوط، ولذلك بدأ يحزم أمره ويدبر الرأي حوله بتحسس مواضع قدميه لتحقيق غايته الكبيرة في دولة إسلامية تنتظم كل السودان المعروف.

ولذلك كانت خطوته الأولى بعد ذلك أن اتصل سراً بعمارة دونقس الحاكم المسلم في منطقة سقدي حول (سنار الآن) اتصل به شاكراً له رفعه لراية الإسلام بين قبائل الفونج وشاكراً له غيرته وإيواءه لكل مسلم لجأ إليه وأخبره بما آل إليه حال الأعراب المهاجرة في وسط السودان من ضعف في العقيدة وجهل بأصول دينهم وعزا ذلك كله للنفوذ المتبقي للدولة المسيحية النوبية في سوبا زيادة على بعد هؤلاء الأعراب عن موطن الوحي وانسلاخهم عن مجامع العلماء والفقهاء. وأطلع عبد الله جماع الملك عمارة على رأيه في الجهاد في سبيل الله ومحاربة الدولة المسيحية في سوبا وهي تمر بفترة ضعف وتشتت.

واستجاب الملك عمارة دونقس الذي كان بدوره يعد لهذا الغزو ووجد في تجمع الأعراب حول سوبا تحت قيادة زعيم عالم سنداً قوياً وأكيداً، ولذلك أسلم عمارة القيادة للشيخ

عبد الله لقربه أولاً، ومعرفة قبائله بمنطقة سوبا، ولما تأكد له كذلك من كثافة الجمع الذي اجتمع عليه.

جيّش عبد الله جماع الجيوش، وأعد الحشود من فرسان الخيالة بسيوفهم والدروق وحملة النبل. ثم ما لبثت جيوش الملك عمارة أن وصلت إليه في ثروتهم ورماحهم الشهيرة وانضموا إلى قيادته فتكون بذلك جيش إسلامي موحد من القبائل السودانية لأول مرة في تاريخ السودان. واتجهوا نحو النوبة المسيحية نحو سوبا، وكانت مملكة العنج المسيحية تكتنفها الدسائس والخصومات. ولما رأوا الحرب تطرق أبوابهم انتفضوا تلك اللحظات وتنادوا بالنجدة والمقاومة. فدارت حرب شاقة قاسية بين الفريقين استمرت لإحدى وعشرين نهاراً وليلاً. وبرز شيخنا الورع، الشيخ عبد الله جماع كقائد محارب قوي الشكيمة حتى ألحقوا الهزيمة بقوات العنج الذين مات منهم في سوح الوغى خلق كثير ولم يقووا على المقاومة أكثر فأخلوا (سوبا) وانسحبوا منها إلى العاصمة الأخرى شمالي الخرطوم (الحالية) على بعد ستين كيلو متراً وتسمى (قرى) وكان بها حصن منيع احتمى به أمراء المملكة المسيحية وواصلوا بذلك المقاومة.

وهنا كان للشيخ عبد الله ابن برز كمقاتل جسور هو الشيخ عجيب المانجلك، فوقع عليه الاختيار لقيادة سرية مختارة تقتحم حصن (قرى) الحصين مهما كلفهم ذلك حتى تلفظ المملكة المسيحية أنفاسها الأخيرة.

وانبرى الفتى الشيخ عجيب المانجلك في سرية مقاتلة مختارة ينفذ في جسارة وبسالة أوامر والده الشيخ عبد الله جماع فحاصر الحصن من كل جانب ورماه بالنبل والسهام ثم اقتحمه في وجه مقاومة شديدة دارت فيها معركة نهائية قاسية أشبه بمذبحة واستطاع في النهاية أن يشق طريقه داخل الحصن الحصين وسقطت (قرى) وهتف شاعر العبدلاب بالبطل المظفر الشيخ عجيب فاتح حصن (قرى) هتف به منشداً[1]:

طابت يمينك يوم قرى نازلاً
والحرب تحكي لجة النيران
حفت بك الأبناء آساد الشرى
بيض العمائم صاحبي التيجان
لباسهم صلب الحديد وخيلهم
نشوى بريح الحرب كالسكران
يتسابقون إلى المعالي في الوغى
كتسابق الأجياد يوم رهان
وأبوك جماع الذي جمعت له
غرر الفضائل طاهر الأدران

(١) القصيدة من نظم المغفور له الشيخ عثمان محمد أونسة، وهناك أراجيز ومقاطع من الشعر الشعبي الغنائي تمجد كلها يوم قرى ولا يزال فرع العبدلاب بالهلالية «في الجزيرة» يحفظ الكثير من ذلك التراث البطولي بأغانيه وقصائده وتقاليده وطقوسه بما فيها ألقاب «الأرباب والمانجل» وبما فيها النحاس وعرضة السيف الصقرية.

جـمـع الإلـه بـه الـعـروبـة وهـو
ذا شـيـخ الـعـروبـة فـي ربـى الـسـودان
سـل عـلـوة أو سـوبـة عـن بـأسـه
عـن جـيـشـه الـجـرار بـالـفـرسـان

وبذلك أذنت مملكة النوبة بالغروب وانتهى عهد طويت راياته إيذاناً ببزوغ عهد جديد رفرفرت راياته على بقايا الحصن العتيد في قرى[1] . . وجردت الغنائم والأسلاب بما فيها تاج ملك النوبة العظيم المرصع بالجواهر والياقوت، كما غنموا سيفه الأثري وكذلك آلة الحرب الهامة المسماة (الشبلنكيت)[2] بزمرها وطبولها وهي عبارة عن أدوات النفير الحربي، وكانت ذات أثر قوي في كل حروب ممالك النوبة المسيحية.

وبذلك نشأت الدولة الإسلامية وجدد التحالف العبدلابي الفونجي طريقة الإدارة في الدولة الجديدة.

واضطلع الشيخ عبد الله جماع بدوره الجديد حاكماً على كل منطقة الوسط في حوض نهر النيل.

---

(١) حصن قرى: هذه القرية لا تزال بآثارها العظيمة عامرة على بعد ستين كيلو، شمال الخرطوم بحري.

(٢) الشبلنكيت: هي نحاس الحرب الضخم. . تتبعه مجموعة مكملة من الطبول والزمر (القرون والبروجي) تشكل في مجموعها صوت النفير أي إعلان حالة التعبئة القصوى، إذ كان الجميع يشتركون في الحرب ثم يعودون كل إلى مهنته وكانت القرى مشتتة فلا بد من وسيلة مبتكرة في داخل ذلك الواقع كله لجمع الناس فوراً عند الضرورة فكانت (الشبلنكيت).



أناشيد الحماسة

في الفروسية والتنبر بالأمجاد.. سمة سودانية أصيلة، شاعت في مناطق العبدلاب ولا تزال.

والصورة هنا لأناشيد الطنبور منطقة شندي...

وبرزت أفكاره الإصلاحية فاستعان بالعلماء والفقهاء وحفظة الذكر الحكيم فأنشأ الخلاوي وانعقدت حلقات الذكر ومجالس العلماء والتفت أجيال الضياع حول الفيض الجديد فعادت الروح وتماسك البنيان الروحي وسرت دفعة معنوية جديدة بين سكان وسط نهر النيل.

ثم التفت الشيخ عبد الله جماع لنواحي العمران.. فأمر بالسواقي فأدخلت على طول نهر النيل فاستقرت القبائل في شكل وحدات تزاول الزراعة ونشأت قرى كثيرة آهلة بالسكان وقلت حياة التجوال في مجتمع الرعي غير المستقر وساعد ذلك على ازدهار حضارة إسلامية سودانية فأنشئت المساجد وعمرت الخلاوي ونشطت التجارة.. واختلط الناس في الدرس والتعامل وتناسبوا وتناسلوا مما مهد لفترة الانصهار القومي.

كما واصل الشيخ عبد الله جماع صلاته الطيبة الحميمة بحلفائه في مملكة سنار فزاد التفاهم مما ساعد على إيجاد استقرار كامل في كل السودان المعروف، واستمر الشيخ عبد الله جماع يصرف كل هذه الشؤون في مقدرة وحكمة ورجاحة عقل حتى عم ذكره كل مكان. وحافظ على ذلك النهج القويم حتى توفاه الله، وهو يقوم برحلة تفقدية في أقصى الحدود الشمالية بالقرب من مدينة (اسوان) ودفن في ذلك المكان فكانت وفاته في ١٥٥٥م، وبذلك يكون قد حكم منذ ١٥٠٥ أي خمسين عاماً كاملة في فترة هامة وأساسية في

تكون السودان الموحدة القومية وخلفه ابنه عجيب المانجلك . .

شخصيات سودانية

الشيخ عجيب المانجلك[1]
سنة ١٥٦٢ ـ ١٦١١م

«وقد خلفه ابنه الشيخ عجيب المانجلك وهو الذي وسع المملكة، وكان من أكابر أولياء الله. وقام داعياً إلى الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه وصار يحكم في الناس بالعدل مع اشتهاره بالرأفة والرحمة والتفقد للرعية، وقد كان يمر بنفسه على سائر البلاد التي تحت طاعته ويزيل عنها البدع والهمجية.. الخ.. الخ.».

نقلاً عن مخطوطة العبدلاب للشيخ الأرباب عبد الله شاور.

هو عجيب بن الشيخ عبد الله بن محمد الباقر الحسين (عبد الله جماع) ويصل نسبه إلى بيت كريم من أشراف مكة المكرمة هو بيت بركات.

وأمه هي عائشة بنت الشيخ حمد أبو دنانة المدفون (بأبي دليق).

---

(١) ملخصة عن كتابنا: ملوك العبدلاب (الشيخ عجيب وعهده) والكتاب لا يزال تحت الطبع.

كان للشيخ عجيب إخوة كثيرون منهم الشيخ إدريس الانقير جد الانقرياب والشيخ محمد ديومة جد الديوماب، والشيخ أدر كوجه جد الأدركوجاب والشيخ سبه جد السباباب وغيرهم كثيرون.

لقد تفتحت عيناه في صباه المبكر في وسط السودان على حياة البادية بنجوعها ونشوقها، خاصة في سهل البطانة الفسيح المنبسط النموذجي لحياة الرعاة في انطلاقهم بلا حدود سعياً وراء الكلأ والماء.

وامتلأ ـ وهو بعد في ذلك الطور المبكر في صباه ـ امتلأ (الشيخ الفتى بكل ما توحيه وتكسبه حياة الانطلاق في الآفاق في البيئة البدوية السهلة الممتنعة اكتسب النضج المبكر، وتعشق مثل الشهامة والنجدة والضمير العامر الحي، فنشأ الفتى عجيب شاباً باسل المحيا مديد القامة، متماسك التكوين، يزين ذلك كله سمة تميز ابن الأسرة البدوية ذات الرياسة والزعامة وهي سمة التشرب بالقدر الممكن من الحياة الأكثر تقدماً، فنال نصيبه الممكن من العلم المتاح بفقه الدين وشرعه، وحفظ الذكر الحكيم، وتلقى عناية خاصة صقلت من مكتسباته البدوية وزانتها فبرز الشاب متألقاً بين أنداده والأتراب.

اجتمعت البطون والأفخاذ ذات الأصول العربية على زعامة والد عجيب الشيخ عبد الله ولقبوه (بجماع) وانهمك الشيخ عبد الله جماع بكل جهده في تقوية آصرة التجمع بين أشتات البادية كزعيم ورئيس، كما انهمك الشيخ في العمل على تسهيل حياة أهله القاسية فيما يلاقونه في سنين القحط

والشظف، وفيما كانوا يلاقونه من عبء الفروض الضرائبية التي كانت تجبى للدولة التي كانوا يعيشون في كنفها، دولة مملكة سوبا المسيحية.

وقادت تلك الجهزد الشيخ جماع لأن يتجه بفكره نحو الدولة الإسلامية في الجنوب الشرقي في دولة الفونج، ففكر بحلف إسلامي يربطه بالملك عمارة ملك الفونج الإسلامي يكون موجهاً ضد المملكة المسيحية في علوة ويتم له بتلك الوسيلة إقامة دولة خاصة بالمسلمين في وسط السودان بما يمكن أن يعنيه ذلك من تطور كبير يحدث في حياة هؤلاء الأعراب الذين طالت بهم حياة النجوع والنشوق والترحال القاسي. فاختار الشيخ جماع فتاه الباكر النضوج الشيخ عجيب، وأوكل إليه قيادة وفد التفاوض باسم العبدلاب وحلفائهم مع الملك عمارة في مملكة الفونج لانشاء حلف (عبدلابي فونجي) تنبثق عنه دولة إسلامية سودانية كبرى، وكانت تلك هي أكبر مساهمة عملية في المشاركة الموفقة من جانب الشيخ عجيب في شؤون الإدارة وسياسة شؤون القبائل، ذلك أن تلك الوفادة قد أثمرت بأكثر مما كان يؤمل لها.. حيث وجد الوفد العبدلابي تجاوباً تاماً من الملك المسلم في الجنوب الشرقي للسودان الملك عمارة دونقس.. فسهل مهمة الوفد إلى أقصى الحدود وتم وضع الأساس للحلف العبدلابي الفونجي، ذلك الحلف الذي كان الأساس المتين الذي عليه انبنت الدولة السودانية الموحدة لفترة طويلة تمتد من عام ١٥٠٥ إلى ١٨٢١م أي أكثر من ثلاثة قرون، واكتمل الحلف

بوصول وفد العبدلاب راجعاً من جبال سقدي إلى منطقة (قرى) مركز العبدلاب حيث وافق الشيخ جماع نهائياً على بنود الحلف الذي نص في شكله العام على تحالف يشترك بموجبه الفونج والعبدلاب في التصدي الحربي المملكة المسيحية في علوة، ويكون ذلك بهدف خلق دولة موحدة للسودان تقوم على تحالف ائتلافي بين الفونج والعبدلاب، يُتخذ له قاعدتان أساسيتان في (سنار) حيث يمارس ملوك الفونج سلطاتهم وفي (قرى) حيث عاصمة العبدلاب لمزاولة سلطات الدولة في ذلك الشطر (وسط السودان).

وعندما بدأ التنفيذ الفعلي والتقت جيوش الحليفين (الفونج والعبدلاب) في معاركهم ضد العنج ومملكة علوة.. برزت من خلال المعارك صفات الشيخ عجيب كمحارب جسور، ذا مقدرة وحنكة في تحريك الكتائب وقيادة الفرسان في سوح الوغى.. وأهّله ذلك لأن يختاره ويرتضيه الحليفان ليكون القائد الرئيس في المعركة الحاسمة النهائية ضد المتقهقرين من الأمراء والقادة بقايا ملوك (العنج) الذين انسحبوا من العاصمة (سوبا) متقهقرين إلى مكان شمالي الخرطوم قرب جبل جاري حيث يوجد حصن حصين في مدينة (قرى) وهناك دخلوا برجالهم الحصن ورفعوا رايات مملكة علوة إيذاناً بعزمهم على المقاومة وهم (رماة الحدق)[1].

(١) رماة الحدق: كناية عما اشتهر به النوبة في الحروب من مقدرة فائقة في رمي النبل والسهام.

اختير الشيخ عجيب لقيادة كتيبة خاصة قوية من الفرسان يكون عليها اقتحام الحصن تحت أي مقاومة. وكان ذلك ضرورياً حتى يضمن الحليفان النصر الذي تم في (سوبا).

وهناك في (قرى) قاد الشيخ عجيب رجاله في معركة قاسية، إذ انهمرت عليهم النبل من جنبات الحصن التي تسلقها رجال مملكة سوبا، فأصدر الشيخ عجيب أوامره بالهجوم من كل جانب للوصول إلى جنبات الحصن واقتحامه مهما كانت التضحية. وتم ذلك إذ اقتحم فرسان الكتيبة بجيادهم المختارة وهم في دروعهم المتينة جنبات الحصن واستطاعوا دخوله حيث دارت المعركة الأخيرة والتي انتهت بنصر كامل للشيخ عجيب.. مما رفع من مكانه كبطل إلى أرفع درجة في نظر كل القبائل وتغنت الحكومات ببسالته يوم فتح (قرى) فقالت إحداهن:

فارساً ما ابتطيق أعداه هجمة خيله
عزمه يزحزح الجبل العظيم ويزيله

كما امتدحه شاعرهم بالقصيدة المشهورة (طابت يمينك يوم قرى..) وأضيفت البطولات العسكرية للحنكة السياسية وللخلق القوي المتين ولسمات التقوى التي تحلى بها جميعاً الشيخ عجيب ولذلك صار خليفة والده المرتقب، بل دشن عملياً ملكاً لمملكة العبدلاب.. دون سائر إخوانه أبناء الشيخ عبد الله جماع الكثيرين، ولكنه نظرياً لم يتم ترسيمه رسمياً إلا بعد وفاة والده وكان ذلك في سنة ١٥٦٣م. وكان يوم اعتلائه

كرسي الرياسة يوماً حافلاً عبرت فيه القبائل المنضوية تحت نفوذ مملكة العبدلاب عن استبشارها بالزعامة الواعية فأتته الوفود من كل صوب تنشد النشيد وتقصد القصيد أو كما قال شاعرهم(١):

سلام على رب الكتائب والقنا
سلام على حامي الحمى المتدارك
سلام على الطود العظيم الذي دعا
إلى الحق بالبيض العوالي الفواتك
سلام أيا من تشهد الناس أنه
شبا عزمه فوق النجوم الشوابك
وجردت من سيف العزيمة صارماً
أبدت به (عنجا) بقية هالك

ولم يخيب الحاكم الجديد أمل شعبه فيه فشمر منذ توليه الرياسة عن ساعد الجد، حاملاً أمام ناظريه طيلة عهده الذي استمر قرابة الخمسين عاماً الآمال العراض التي عقدتها القبائل على عهد حكمه.

فبدأ بالأمن، يوطده، ويؤكد أولاً سلطان الدولة.. فإن اشتات القبائل البدوية والتي كانت تكوّن شعب مملكة العبدلاب، كانت قبائل رعوية تتسم بكل ما تتسم به مثل هذه المراحل التاريخية في التكون الحضاري للقوميات والشعوب.

---

(١) من قصيدة للزعيم العبلادبي الكبير المغفور له: الشيخ عثمان محمد أونسة.

كانت تتسم بسمات الرعاة البادين بخصائصهم المعروفة في الميل للانطلاق بلا حدود في آفاق الأرض، والابتعاد والكراهية لأي نوع من القيود خاصة ما تستدعيه نظم الدول من الخضوع لسلطان قوة مهيمنة تقر النظام وتفرض حكم القانون بدون أي اعتبار إلا اعتبارات النظام والعدل والقانون. . ولذلك فإن حبل النظام كان دائم الاضطراب بين تلك القبائل. ولذلك فإن نشوء الدولة الموحدة لم يبدل كثيراً في حياتهم إذ لم تفلح في فرض الاستقرار وإشاعة ما يمكن من خدمات مناسبة. أكد الشيخ عجيب أنه لا يتساهل في هذا الشأن فإن الضرائب يجب أن تجبى وإن غارات التعدي والسلب يجب أن توقف وإن تحكم القانون والشريعة فيما يشجر من خلافات هو وحده الذي يجب أن يسود. ومضى فعزز ذلك بانشاء قوة عسكرية قادرة حتى أنهم ذكروا أنه أعد لحراسة العاصمة وحدها في (قرى) قوة ضخمة، إذ كان يتناوب حراستها في كل يوم (إثنا عشر ألف فارس على إثنا عشر ألف حصان من لون واحد أبيض أو أسود أو أحمر)[1].

كما تحرك بقوات أخرى ـ في استعراض للقوة المنظمة ـ على منطقة نفوذه الواسعة التي تحد شمالاً بفرس وجنوباً بالنيل

---

(١) مجموعة السودان في رسائل ومدونات، الجزء السابع عشر للمستر (بن) ومقال (آركل) في المجلد الخامس عشر ومقال (كروفورد) في المجلد ستة وعشرين صفحة ٣٣٣، كذلك تنظر مخطوطة العبدلاب للشيخ الأرباب عبد الله ود شاور. .

الأزرق وشرقاً بسواكن وعيداب.. وقام هنالك بإعادة تنظيم الإدارة فمكك المكوك وشيخ الشيوخ في احتفالات رسمية أبرزت هيبة العهد الجديد، ولم يتردد أثناء ذلك في استعمال القوة لكبح جماح أي نوع سن التمرد على السلطات أو الخروج على الأعراف المرعية والتقاليد الشرعية. حارب قبائل المناع حرباً دامت أياماً كثيرة حتى أخضعهم تماماً وواصل تطوافه الطويل يملك ويشيخ الرؤساء الأقوياء على المنطقة فنشأت رياسات الحمدة والجموعية، والسعداب والرباطاب، والميرفاب والشايقية... الخ كما أعلن عن شياخات في شرق السودان في الحمران والنابتاب والحلنقة والكملاب وغيرهم.

ثم أردف الشيخ عجيب ذلك الجهد العظيم باختياره وتعيينه قضاة من مشاهير العلماء الإسلاميين معلناً بذلك فصل القضاء عن الإدارة، ومؤكداً أنّ حكم قضاة الشرع العدول هو الذي يجب أن يسود، فقيل إنه عين أكثر من أربعين قاضياً (انظر هنا طبقات ود ضيف الله في نسختيها) وكان أشهر هؤلاء الشيخ دشين أشهر القضاة السودانيين، والذي قال فيه فرح:

دشين قاضي العدالة الما بميل للضلالة

والشيخ دشين هو جد الشيخ محمد ود مدني السني المدفون الآن في منطقة الدندر.. وكان من أشهرهم، كذلك الشيخ عبد الله العركي جد العركيين بأبي حراز، ومنهم كذلك الشيخ حمد النجيض الجموعي العوضابي صاحب مسجد (اسلانج) الحالي، ومنهم كذلك الشيخ علي ود عشيب المولود

في دنقلا والمدفون ببلدة ود عشيب قرب الهلالية، ومنهم كذلك (راجل القصير) المشهور بالنيل الأبيض الشيخ محمد العركي، إلى آخر تلك المجموعة النيرة من العلماء الصالحين.

وبعد ذلك عين الشيخ عجيب تعييناً نافياً لكل جهالة حدود سلطات مناديب الدولة ورجال الإدارة، فإن مجلس الأجاويد المكون من ذوي الرأي وكبار السن من كل فرع وقبيلة تساعد الشيخ أو الملك في مزاولة السلطات من توزيع الأراضي الزراعية وتوزيع مناطق الرعي وأماكن الري والمساقي من آبار وحفاير وغيرها وتحديد حقوق كل قبيلة في الطرق والمفاوز ووضع علامات ثابتة تحدد هذه الحدود. وعن استتباب الأمن وسيادة النظام وتفادي المنازعات وسفك الدماء فإن حكم الشيخ في مجلس الأجاويد أو حكم القاضي أو إقرار الصلح بواسطة أي من هؤلاء وارتضاء الأطراف به يجب أن ينفذ ولو بحد السيف، كذلك فإن جمع العشور المقررة والدقنية وأنواع الضرائب الأخرى على الأرض أو الحيوان وكذلك (الزكاة والفطرة وكذلك الدخوليات والمكوس التي تجبى من القوافل التجارية العابرة كمقابل جمركي كل هذه الضرائب ضمن سلطات الملك أو الشيخ ويسأل عنها أمام الشيخ عجيب نفسه).

بعد ذلك التفت الشيخ عجيب إلى جانب هام في صقل النفوس وإذابة دعاوي العصبية الجاهلية التي كانت تسود البادية المكونة لشعب مملكته، فالتجأ الشيخ في همة عاليه نحو (التعليم).

وكان نوع التعليم السائد والممكن كما قال الدكتور شبيكة[١]: كان كل ما يطمح إليه الفرد في نيل نصيب من العلم والمعرفة في ذلك الوقت أن يسلك الطريق على شيخ مشهور أو تلميذ لشيخ مشهور ويأخذ عنه ما يحتاجه لأداء عباداته وما يعن له في حياته من أمور كالأنكحة من زواج وطلاق: الخ وكالزكاة أنصبة ومقادير.. الخ.

وقال الدكتور شبيكة أيضاً في معرض تعداده للحكام الذين جهدوا في نشر العلم بالمعنى المذكور قال:

وكان أشهرهم ـ أي الحكام ـ الشيخ عجيب المانجلك[٢] خليفة عبد الله جماع على مشيخة العبدلاب إذ يقال بأنه كان يقطع الاقطاعات الواسعة للعلماء والصالحين ويشوقهم للإقامة في مملكته بشتى الطرق حتى ينشروا الدين والثقافة الإسلامية[٣]..

وكانت هنالك مؤسسات لنوع المدارس الممكنة وللمعرفة وهما (الخلاوي) (والمساجد).

في الخلاوي كان الصبية يتلقون ما تيسر من القرآن الكريم وما تيسر من المعارف الابتدائية في الكتابة والقراءة

---

(١) الدكتور مكي شبيكة (السودان في قرن) من طبعة سنة ١٩٦١م «بتصرف».

(٢) المانجلك: لقب للتعظيم يعني لا نجل أحداً سواك، كما لقب الشيخ عجيب «بالمانجل العظيم».

(٣) كتاب السودان في قرن، صفحة ٥ طبعة سنة ١٩٦١م.

ومعرفة المسائل الهامة في العبادات والمعاملات والسلوك السوي.

وفي المساجد كانت حلقات العلم تعقد حول العلماء والمشايخ يرتادها الشباب والكهول والشيوخ يتلقون مبادىء المعرفة الفقهية وأسس المعاملات.

وتناول المانجل العظيم الدعامتين (الخلاوي والمساجد) فبذل في نشرهما أوسع الجهود حتى شمل ذلك كل مناطق شياخته الشاسعة من منطقة فرس في الشمال حتى منطقة (ساوليل) في حدوده الجنوبية الشرقية كما بدأ يجمع حول مملكته مشاهير العلماء ويغريهم بشتى السبل للإقامة والتدريس في المساجد والخلاوي المنتشرة، وكان ذلك إيذاناً بنهضة هامة، أفلحت سريعاً في اقتلاع جذور القسوة من النفوس وكست جو التعامل بين الناس بروح الإلفة والصدق.

ولقد ساعدت كل تلك الجهود مجتمعة والتي بذلها الحاكم المقتدر عجيب المانجلك من إقرار للأمن والنظام وتمكين لسلطات الإدارة وتحكيم للعدل والقضاء في المنازعات، ثم نشر المعرفة بشتى الوسائل المتاحة، ساعدت كل تلك الجهود مجتمعة في خلق المناخ الصالح لاستقرار الرحّل وانتشار الزراعة وازدهار التعامل التجاري فنهضت دولة المانجل العظيم وحقق آمال شعب بلاده فيه.

ولقد اتسم كل عهده بالبشائر ودلالات الازدهار طيلة

سنين حكمه من ١٥٦٣م حتى ١٦١١م لم يعكر صفو ذلك إلا ثلاث حروب كبيرة كانت اثنتان منها ضد الجناح الآخر الحليف في حلف ١٥٠٥ ضد الفونج.

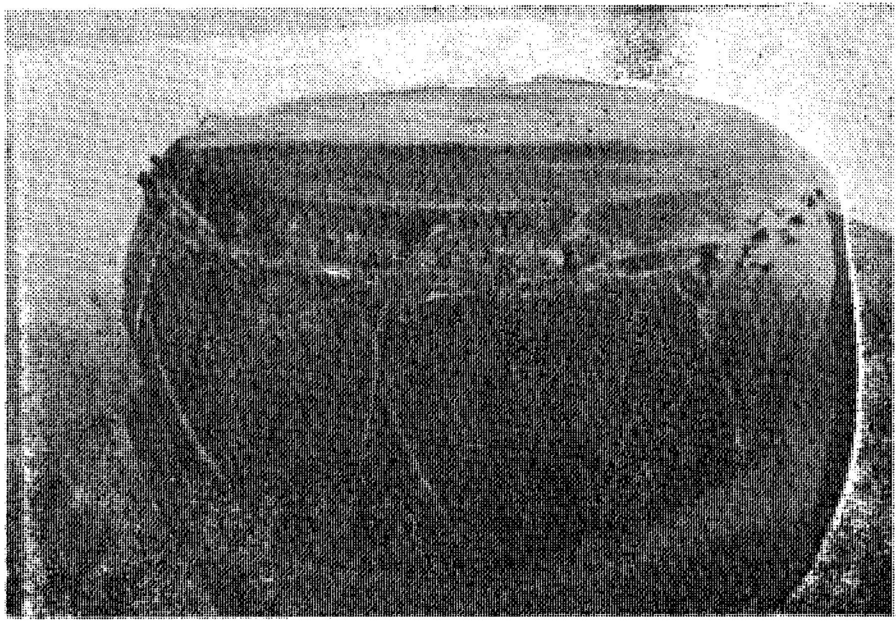
حربه الأولى ضد الفونج كانت في عهد السلطان الفونجي عبد القادر الثاني الذي حكم في الفترة (١٥٩٩م - ١٦٠٥م) وكانت نتيجة سوء تفاهم على تطبيق بنود الحلف الفونجي العبدلابي[1].

أما حربه الثانية فكانت نتيجة لتلك الأولى التي كان الفونج قد هزموا فيها أشنع هزيمة.. مما ملأ القلوب بالضغائن واستمرت روح العداء حتى اندلعت الحرب الثانية الكبيرة وكانت في عهد الحاكم الفونجي السلطان عدلان الذي حكم في الفترة (١٦٠٥م - ١٦١٢م).

وكانت تلك موقعة حاسمة وقعت في ١٦١١م بالقرب من مكان يدعى (الدبكرة ود أبعمارة) وهي في محل الجريف شرق الحالية. وتصف مخطوطة العبدلاب وصفاً مفصلاً ما دار في تلك المعركة لأنها كانت الموقعة التي قدر للمانجلك العظيم أن يستشهد فيها بين القنا والكتائب وهو يقود جيوشه رغم أن السن كانت قد تقدمت به كثيراً إذ تعدى عمره المائة عام.

---

(١) يراجع تنظيم «نعوم شقير» لسلسلة ملوك الفونج وهو نفس تنظيم الشيخ إبراهيم عبد الدافع في مخطوطه الشهير.



الشبلنكيت

نحاس الحرب الضخم: أداة النفير والتعبئة الحربية، وهو بعراقته ومدلوله يعني الكثير.. آل لعجيب المانجلك من مملكة سوبا وتوارثته عهود الممالك السودانية حيث لايزال باقياً.. رمزاً للعز والمجد المتصل.

ومن أجمل ما ذكرته المخطوطة في هذا المقام:

.. كان بداية الاحتشاد في العاصمة (قرى)[1] إذ بدأ النفير العالي بضرب الشبلنكيت وهي نحاس الحرب الضخم وتصحبه مجموعته من الأبواق والمزامير وأخذ النحاس يكرر (بالنغم) كلمات النفير الحربي وهي تقول:

الكبدة كبدة ألبل معروكة بي فلفل

عبد الله مقدمكم شر دماً يعسمكم

ثم تصف كيف بلغ النفير الحربي مداه وتجمعت فرسان القبائل في كتائب وسرايا تفرد راياتها وتردد نمات العزم وأناشيد القتال، فرسانها شاكيي السلاح في أمتن الدروع وأبتر الحواسم، وتحركت القوات وأمامها الحاكم المحبوب عجيب المانجلك وهو فارسهم المغوار الذي تعودوا طيلة نصف قرن على القتال تحت راياته فرأوا دائماً كيف كان بطلهم الفذ يصول ويجول ويحكم الخطط وينادي في الرجال في مواقعهم في أحسن نظام داخل ميدان المعركة، رأوا كل ذلك لنصف قرن من الزمان ولم يذكروا قط أن الشيخ قد هزم، حتى حسبوه لذلك ولطول ما عرفوه عنه بطلاً لا يسقط قط، ونجماً متوهجاً على الزمان بلا أفول.

نسوا بذلك سنة الله في خلقه ونسوا حتى أحكام السن، وفارسهم المعجزة كان قد تعدى المائة من العمر، ولذلك

(١) صارت قرى بعد ذلك وفي فترات طويلة عاصمة للجزء العبدلابي من مملكة سنار والقرى كما ذكرنا شمال الخرطوم قبالة جبل جاري.

فعندما دارت المعركة وعندما بذل القائد كل طاقته حتى أصيب إصابة قاتلة وسقط شهيداً في ساحة الوغى، فإن جيوش العبدلاب أصابتهم صدمة كبيرة وهزموا بعد ذلك أشنع هزيمة لدرجة أن كل دولتهم سقطت في أيدي السلطان عدلان الفونجي واستمرت حتى وقت غير قصير كذلك، إلى أن توسط الصلحاء والخيرون كالشيخ إدريس ود الأرباب الذي تمكن من إعادة الثقة بين الحليفين الفونج والعبدلاب، فعاد الحليفان للالتزام بالحلف الاتحادي الذي مكن للسودان أن تكون له دولة سودانية موحدة لأكثر من ثلاثة قرون حتى غزته جيوش محمد علي باشا من مصر في ١٨٢١م(١).

سقط الشيخ عجيب ـ إذن ـ في تلك المعركة ونقل جثمانه الطاهر إلى العاصمة (قرى) في مشهد مؤثر أليم ووورى هناك الثرى ثم أقيمت على ضريحه قبة واصل أحفاده منذ ١٦١١م تجديدها والاحتفاظ بهيبتها حتى اليوم، ونحن في عام ١٩٦٩م والآن رأيت تجديداً وترميماً يجري هناك في القبة قرب جبل جاري وعرفت أن سليل الملك عجيب الشيخ عثمان أونسة وأهله يضطلعون بهذا العمل الجليل. وإني لأدعو المهتمين بتراثنا الوطني من جميع الوحدات والهيئات أن يشاركوا الاهتمام في الاحتفاظ اللائق بهذه المنارات التاريخية للرجال العظام الذين صنعوا الحياة يوماً على هذا الثرى.

---

(١) استمرت دولة السودان في القرن الخامس عشر الميلادي من سنة ١٥٠٥م حتى سنة ١٨٢١م أي ثلاثة قرون وتزيد.

شخصيات سودانية

الشيخ الأمين ود مسمار

يقول كاتب الشونة صفحة ٢١ من مخطوطه:

«فأجابهم من يجيب المضطر إذا دعاه وأهل لنصرتهم ذلك الملك بادي، فجيش جيشه وأمر عليهم الأمين ومعه المقاديم وفرسان مشهورون فقطعوا البحر حتى تلاقوا مع السلطان أياسو ـ سلطان الحبش ـ قرب الدندر فتقاتلوا حتى هزم الله تعالى عساكر أياسو.. ففرح أهل سنار ووفوا بنذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الولائم ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة أيام...».

والأمين ود مسمار المذكور والذي تمت على يديه هزيمة الحشود الأثيوبية التي غزت السودان في يوليو ١٧٣٥م يساعده في ذلك جماعة من المقاديم المشاهير.

الشيخ الأمين هذا هو أحد الذين لعبوا دوراً بارزاً في تاريخ الوطن السوداني خاصة في الفترة التي أتيح له فيها اعتلاء كرسي الرياسة في الجناح الآخر من مملكة سنار وأعني الجناح العبدلابي.

ولقد بدأ نجمه يبزغ ويبرز كزعيم مرموق منذ أن استطاع في صباه الباكر أن يبرهن على بسالة في الحرب ورجاحة في

الذهن، ولا غرو فقد نشأ في بيت الفروسية، فهو الأمين بن الشيخ مسمار بن الشيخ عبد الله بن الشيخ عجيب بن الشيخ محمد العقيل بن الشيخ عجيب المانجلك (والذي ترجمنا له من قبل). وتقول مخطوطة العبدلاب للشيخ الأرباب عبد الله شاور في معرض تلخيص صفات هذا القائد. . تقول المخطوطة فيه:

(كان فارساً مغواراً وبطلاً مقداماً، تهابه الرجال وتخشى صولته الأبطال، فشهدت له كل القبائل بالشجاعة التي قل نظيرها. وقد حكي أن الشيخ خوجلي رضي الله عنه أوصى في ليلة مولد الشيخ الأمين عليه جده الشيخ عبد الله، لذلك كان جده يكفله نهاراً ولا يأمن عليه أحداً في المساء. .).

لقد اتجهت الأنظار في كل السودان ١٧٣٥م إلى الشيخ الأمين وكان في تلك الفترة قائداً في جيش عمه عجيب الرابع أحد مشايخ مملكة العبدلاب والتي كانت عاصمتها قد انتقلت من قرى إلى حلفاية الملوك.

ولكن عندما جيش النجاشي امبراطور الحبشة في ذلك الوقت وهو (الامبراطور أياسو)، جيش جيوشه العظيمة وصمم على غزو السودان واغتيال دولته الموحدة بموجب حلف ١٥٠٥م الذي أنشأ مملكة سنار الإسلامية بكل أقاليمها ذات الاستقلال الذاتي. . عند ذلك التهديد الخارجي، ارتفعت الحمية القومية وانصهرت الاختلافات القبلية، وارتفعت نداءات الوحدة الوطنية من أجل الوطن. . لصد الغزاة الأجانب.

وعلى أساس من تلك النظرة الوطنية بدأ النفير الحربي متخذاً الأسلوب والشكل الذي يعني في هذا العصر دعوة تلاحم الجبهة الداخلية للوطن للوحدة والتماسك وتوفير كل جهد ممكن للحرب.

لذلك فإن الملك الفونجي بادي أباشلوخ (١٧٢٤م - ١٧٦٢م) والذي كان على رأس مملكة سنار اتجه ببصره نحو كل المنطقة يعجم معادن الرجال باحثاً في كل الوطن عن الرجل الذي يحمله القيادة فيكون على مستوى إعداد الذين ملأت حشودهم كل فج من قوات الأحباش وبدأوا سيرهم الحثيث نحو العاصمة (سنار).

حينذاك لم يجد الملك بادي على كثرة الأبطال من يحمله القيادة كلها إلا الفارس المقدام الأمين ود مسمار.. وفي هذا المقام يقول نعوم شقير، واصفاً لتلك الحرب وآثارها الكبيرة داخل السودان وخارجه يقول شقير[١]:

(فجمع الملك بادي جيشه من المشاة والفرسان وجعل على قيادتها الأمين ود مسمار ود عجيب، شيخ مشيخة قرى قائداً عاماً، وجعل على الفرسان الشيخ محمد أبا لكيلك كبير الهمج[٢] وقد تسلح المشاة بالسيوف والحراب، ولبس الفرسان

---

(١) صفحة ٨٠ الجزء الثاني، كتاب نعوم شقير: تاريخ السودان وجغرافيته «الطبعة الأصيلة» طبعة عام ١٩٠٣م.

(٢) والهمج قوم خلاسيون خليط من العرب والنوبة وقيل بل هم فرع من الجعليين العوضية «شقير المصدر المذكور».

دروع الزرد[١]. . . وألبسوا خيلهم (اللبوس)[٢]. . . واجتازوا النيل فاجتمعوا على خميس أمير الفور. . وانضموا جيشاً واحداً، وساروا لملاقاة جيش الحبش. . فالتقوا به في محل يقال له الزكيات شرق الدندر. . . واقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيه من الجيشين خلق كثير. . وكان النصر لجيش سنار، فغنم غنائم عظيمة[٣] من أسلحة ومدافع وخيام وخيول وغير ذلك.

ونالت سنار بهذا النصر شهرة طبقت الآفاق حتى بلغت مصر والشام والحجاز والاستانة وتونس والهند، فتقاطر الناس إليها أفواجاً من كل الجهات وأقاموا فيها. . .)

هذه هي إذن المعركة التي كانت على مستوى الدولة السودانية وكل شعبها ضد الغزاة الأحباش. ونرى كما روى شقير الأثر الضخم الذي أحدثته في مجرى الأحداث في تلك الفترة من تاريخنا القديم.

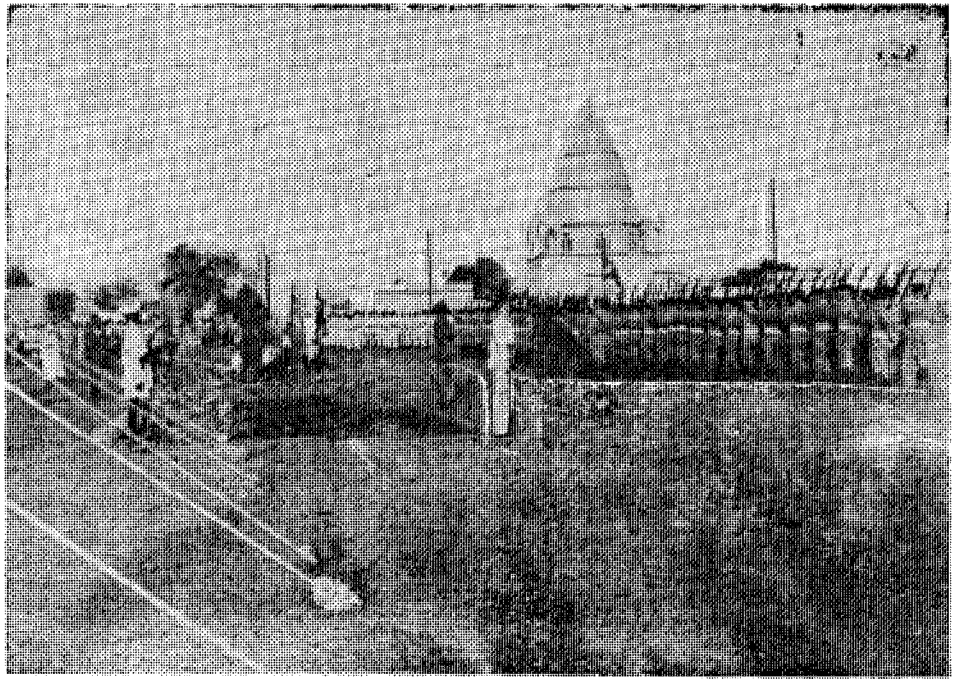
ولنذكر الآن أن شخصيتنا السودانية مجال هذا الحديث (الأمين ود مسمار) كان القائد الميداني والذي اضطلع في

---

(١) الزرد: نوع من الدروع الفولاذية ذات الطابع الفارسي.

(٢) اللبوس: دروع الخيل.

(٣) يذكر شاطر البصيلي ـ الكاتب المصري الذي عمل موظفاً في السودان ـ في كتابه «معالم السودان» أن الحيش السوداني غنم الكثير ممّا هو ثمين بما فيه التاج الامبراطوري نفسه وأدوات الزي الامبراطوري الأخرى ومنها ما يعتبر دينياً هاماً بالنسبة للأثيوبيين ـ صفحة ٩٠ من الكتاب المذكور.



من تاريخ السودان الحديث

صورة أول استعراض عسكري أمام أول وزير دفاع سوداني بعد أن حقق الوطن استقلاله من جديد عام ١٩٥٦م.

مقدرة بتلك المهمة العظيمة حتى رفعت راية بلده في الآفاق. . وكانت تلك في الحقيقة أحسم نقطة في تاريخ الدولة السودانية الموحدة نتاج حلف ١٥٠٥م الذي أنشأه العظيمان (عمارة دونقس وعبد الله جماع) إذ تجلت فيه الوحدة بين مختلف القيادات والقبائل، وتم اختيار قواد الجيوش على أساس الكفاءة البحتة على نطاق سوداني عريض، وأتيحت للشيخ الأمين ود مسمار باختياره قائداً عاماً اظهار ملكاته ومقدراته كفارس وقائد قومي.

ومنذ عام ١٧٢٥م اضطلع الشيخ الأمين بمسؤولية الحكم في مشيخة العبدلاب ـ بكل حدودها ـ إذ خلف الشيخ عمر بن الشيخ عبد الله. . وواصل مهامه كرجل دولة بكل مقدرة يمكّن للعمران وتقدم الدولة. . خاصة وأن عاصمة حكمه والتي انتقلت إليها حاضرة العبدلاب من قرى وهي (الحلفاية) كانت حاضرة دولة تغيرت على مر السنين أوجه الحياة فيها فاستقر الرعاة البادون. . وانتشرت المعارف بين الناس وسرت روح التحضر التي تعقب فترات الاستقرار ونشوء الأمدان والمدران. . وتعاطى الناس الصناعات اليدوية في صورتها الأولى كما برز التعامل التجاري بصورة تناسب تماماً سير الحياة التجارية كما عرفتها تلك الفترة من التاريخ في الأقطار المجاورة لوطننا فزادت القوافل ترحالاً وانتقالاً وبلغ التعامل التبادلي في السلع والمنتجات درجة مناسبة. . ووصف كثير من الرحالة حالة الازدهار التي سادت (الحلفاية) ومنطقتها.

وكان عهد الشيخ الأمين قد واصل السير بالأسس التي استقرت تماماً منذ أسلافه الأول في شؤون التنظيم الإداري وهيكله وفي شؤون تشجيع المعارف والعلماء وإشاعة العلم الممكن بين الناس.. ولكن تميز عهده بسمات أخر جعلت عهده يرتبط بها أكثر من غيرها من شؤون السياسة الإدارية والعمل المدني في رفاهية الجماعة.

تميز عهد الشيخ الأمين بالصدامات العسكرية المتوالية والتي وجد نفسه أحد أطرافها.. وكان ذلك تابعاً في الأساس لطبيعة الفترة التي وصل فيها إلى الحكم.

فإن دولة سنار منذ ١٧٦١م أصابها ما يصيب الدول من فترات الفتن التي يمكن أن تفسر على أنها علامات الشيخوخة والتحجر وبداية نسيج داخلي في علاقات بشرية جديدة هي نتاج طبيعي للسير إلى الأمام.. وتعجز الهياكل الموروثة في نظم الحكم والإدارة والسياسة في رؤية وفهم النبت الجديد وبذلك يحصل الاصطدام بين الهيكل القديم الذي يعجز عن مواكبة العلاقات التاريخية الجديدة.. ويتخذ التصادم دائماً له شكلاً يتسم بسمات المراحل التاريخية في تطور الشعوب على مر الأجيال، كل شعب تبعاً لسماته ومرحلته التاريخية التي يجتازها، ويأتي المقلدون من الكتاب والمؤرخين فيكتفون مما يحدث بمظهره الخارجي في التزام الرواية كما رواها من سبقوهم.

أرجع فأقول إنه منذ ١٧٦١م أواخر عهد الملك بادي أبي

شلوخ فإن عهد ملوك (الصولة والجولة) في مملكة سنار آذن بالغروب واتخذ ذلك شكل فتن لم تهدأ بعد ذلك قط حتى تدهورت الدولة وهانت.. فتكالب عليها الغزاة حيث استطاعت جيوش محمد علي باشا في ١٨٢١م أن تغزو السودان وتصل عاصمة سنار مستغلة ظروف تفتت الوحدة الوطنية وانشغال الحكام في الفتن والنزاعات.. وبذلك لم تجد أي مقاومة واغتيل استقلال الوطن وسقطت دولة السودان الموحدة نتاج حلف ١٥٠٥م.

هكذا وجد الشيخ الأمين ود مسمار نفسه يعيش تلك الفترة.. وهو جزء لا يتجزأ من التحالف الفونجي العبدلابي، لذلك كان لا بد أن تجره علامات الانهيار في نظم الدولة في سنار إلى بؤرة نزاعاتها.

كانت البداية منذ ١٧٦٠م بعد حرب المسبعات[1] وبعد إقدام محمد أبي لكيلك كبير الهمج على عزل السلطان بادي

(١) المسبعات: قبيل من الفور كانت تسكن أطراف كردفان الغربية في حدود مديرية دارفور وسلطانهم هو هاشم المسبعاوي وكانت تربطه صلة قرابة بسلاطين الفور وقد ذكر المؤرخ التونسي الذي زار البلاد وكتب عنها ذكر أن معارك قد نشبت بين السلطان هاشم وسلطان الفور «تيراب» في نزاع ما. أما حرب المسبعات المذكورة فتختلف بشأنها الروايات، فرواية العبدلاب تؤكد أنها حرب عبدلابية انضم إليها الفونج تطبيقاً للحلف الأكبر حلف سنة ١٥٠٥ والذي ينص على النجدة حالة الاشتباك لأي من الطرفين مع طرف ثالث.
«تنظر في ذلك مخطوطة العبدلاب كما ينظر مقال السودان في رسائل ومدونات «بن» الجزء السابع عشر. أما الفونج فيقولون بعكس هذا الرأي «شقير صفحة ٨٠ وما بعدها».

أبي شلوخ وبذلك صار ملوك الفونج مجرد ـ هيابات ـ بينما انتقلت السلطة الحقيقية للأمراء الهمج يولون السلاطين ويعزلونهم كما يشاءون، عينوا وعزلوا في الفترة (١٧٦٢ ـ ١٧٨٩م) ثلاثة سلاطين هم (ناصر ـ وإسماعيل ـ وعدلان). . وكانت ـ في تلك الفترة ـ الاضطرابات والدسائس لا تنتهي، ولكن توفي كبير الهمج الشيخ محمد أبو لكيلك فزاد الأمر اضطراباً. . ذلك أن خليفة أبي لكيلك على إمارة الهمج ابن أخيه المسمى بادي بن رجب) كان جباراً عتياً، أعمل السيف في كل من اشتم منه رائحة المخالفة في الرأي، وحارب القبائل الحليفة والمنضوية تحت نفوذ مملكة سنار، حارب الشكرية وقتل شيخهم الشيخ أبا علي وحارب قبائل الحلنقة. . مما أوغر القلوب. وملأ النفوس بالألم، فاجتمعت كلمة القبائل على التحالف ومحاربة كبير الهمج (بادي)، هذا واتفقوا سراً مع ملك الفونج في ذلك الوقت الملك عدلان الذي وافق راجياً أن يكون في هذا نهاية لنفوذ أمراء الهمج على الفونج وسلاطينهم، وهنا كان لا بد للشيخ الأمين. . وهو الزعيم على جناح الحلف في مملكة العبدلاب أن يقود المعركة لتصحيح الوضع الخاطىء، وقد وافقه على ذلك عمه الشيخ عجيب (وكان هو كبيرهم وشيخهم الرسمي). . فقاد الشيخ الأمين جيش المتحالفين ضد أمير الهمج في سنار. . وتقول مخطوطة العبدلاب في وصف تلكم اللحظات:

(أرسل الأمين مالاً لشراء حصان طنبل ملك أرقو لأنه كان حصاناً مشهوراً بالقوة، فأحضروه له، فلما علم الشيخ

بادي بحضور الأمين مسمار لجهته كر راجعاً لسنار. فالتقى الجمعان قرب سنار، وكان بادي يطلب كل فارس باسمه لمبارزته فلم يقدر أحد على ذلك خوفاً منه.. حتى طلب الأمين مسمار فبرز له وحمل كل واحد على صاحبه، فبادر الشيخ بادي بالضرب ولكن لم تؤثر ضربته، فضربه الأمين ضربة قاضية بسيفه الجمجم، فأخذ السيف نصف الخوذة وقمعة الرأس وبقيت في محلها حتى ظن الأمين أن ضربته لم تصبه ولكن رأى الدم نازلاً بشدقيه فوكزه فوقع، فانهزم جيشه فجمعت منهم خيول وأموال كثيرة)[1].

ويقول شقير في نفس المشهد:

(فجمعوا جيوشهم وساروا لقتاله في رفاعة.. وكان الشيخ بادي عند سماعه بعزمهم على محاربته لم يهتم ولكنه لما عرف أن الشيخ الأمين وافقهم على ذلك قال (الآن تحققت وقوع محاربة صحيحة)، قال ذلك لأن الشيخ الأمين كان من الفرسان المعدودين فقام لساعته واجتاز النيل إلى الجزيرة نحو سنار فالتقاه جيوش أعدائه في الطريق فقاتلهم قتالاً شديداً، وصار كلما مر بفارس يسأله من أنت فيقول فلان ويأبى محاربته حتى قابله الشيخ الأمين فقال له: من أنت فقال (محمد الأمين) فضربه بالسيف ثلاث ضربات فلم تؤثر فيه لأن درعه كان حصيناً ولأن ضرب الشيخ بادي كان طائشاً ممزوجاً بالغضب،

(١) ينظر مخطوط العبدلاب.

ثم إن الشيخ الأمين ضربه ضربة أثخنته فوقع على الأرض مجندلاً)[1].

وهللت سنار لهذا النصر واتفق الشيخ الأمين مع ملك الفونج على أن ترجع إمارة الهمج لبيت أبي لكيلك الذين كانوا قد اشتركوا في مقاومة بادي وعينوا (محمد أبي لكيلك) كبيراً للهمج على أن يأخذ أهله ويغادر سنار إلى موضع امارتهم في بلاد المسبعات وظنوا أن ذلك ينهي نفوذ الهمج على ملوك سنار. . ولكن تجددت الفتنة بعد حين، فقد استطاع رجب أن يجمع عليه في امارته بالمسبعات جمعاً كثيراً، فقويت سرياته بأكثر مما كان للملك في سنار من جيوش فتآمر رجب مع أخ له كان لا يزال يعمل بالبلاط السناري ويدعى إبراهيم، اتفق معه على أن يعملا لإعادة سطوة الهمج في سنار ومده سراً بالأموال والعتاد فعلم ملك الفونج سراً بذلك، فلجأ مرة أخرى للحليف القوي الشيخ الأمين ود مسمار.

فما كان من الشيخ الأمين إلا أن طوق سنار بسرعة وقبض على إبراهيم بن محمد أبي لكيلك وأمر به فقتل. . وكانت تلك شرارة جديدة إذ وصل خبر مقتل إبراهيم لأخيه رجب في المسبعات سريعاً، حمله إليه شاعر تغنى كثيراً ببطولات والدهم محمد أبي لكيلك ولم يبخل على أبنائه بعد وفاته، وكان في سنار، وهو يدعى (النعيسان).

---

(١) نعوم شقير، المرجع السابق، صفحة ٨٤، الجزء الثاني.



شخصيات سودانية

فعندما قتل إبراهيم هرب سراً حتى وصل إلى أخيه رجب في كردفان، فأنشده في الحال شعراً ينقل به الخبر ويحرضه على الثأر. . قال النعيسان:

الهنا والهناك من القتال مهموم
اليوم الوزير فوقه المرافعة تحوم
رجب ولد محمد يأجرك الله
في أخيك ثوب القماش الباهي
الهناك والهناك في القتال مضاهي
أنت فيك شيء ولا أنا براي بلاهي

وقد لخص هذه الأبيات البصيلي وترجمها باللهجة المصرية كالآتي:

(يؤاجركم القيوم في حكم اللي قتل الصقر اللي بيحوم. اللي هنا واللي هناك من القتل مهموم. هل فيكم ماشي ولا برايا أقوم. .)[1].

. . . وهب رجب فزعاً يردد (أقتل أخي؟).

ثم نادى رجاله (دنقر) أي اضربوا نحاس الحرب. فجمع جمعه وزحف به تجاه سنار فوصلها في ١٧٨٨م وهناك خرج إليه الشيخ الأمين ود مسمار على رأس قواته وقوات ملك الفونج فدارت المعركة قاسية ودارت الدائرة على الهمج فسقط الشيخ رجب قتيلاً كما قتل منهم خلق كثير. . وفر من بقي

(١) البصيلي، صفحة ٩٢، المرجع المذكور.

منهم وعلى رأسهم ابنا محمد أبي لكيلك (ناصر وعدلان) فهربا شرقاً حتى وصلا حدود الحبشة.

وبذلك تأكد للهمج أن القوة الأساسية هو ود مسمار، فصمما على العمل على الخلاص منه شخصياً بأي سبيل.

فاستطاع (ناصر) أن يجمع من جبال الحبشة ذهباً كثيراً فتقوى وجمع رجالاً وكر راجعاً إلى سنار، فعلم أن الشيخ الأمين في الهلالية.. فلحق به هناك وأسلم القيادة لأحد فرسانه ويدعى (أبكر ولد وحشي).. وكانت مفاجأة عظيمة لهم إذ وجدوا الشيخ الأمين لوحده، ليس معه غير أبنائه الخمسة عشر، وكانت قواته في حالة تسريح تفرقوا في بلادهم للراحة والحياة العادية إذ لم يكونوا على علم بالقوات الزاحفة عليهم.. طلب جيش ناصر من الأمين الاستسلام، فاستمهلهم بعض الوقت فخرجت إليه بنت له تسمى (رقية) فأنشدت بقوة أمامه نمات العزم والحماس مسستكثرة على والدها البطل أن يستسلم ومعه أولاده، فغلت الدماء حارة في عروق أحفاد المناجل العظام وقفز الفتى ناصر بن الشيخ الأمين ناهضاً وأنشد على الفور أمام أخته ووالده وإخوانه قصيدته الحماسية:

الشطارة القاعدة ديمة
حارسة من الجد من قديمه
حاربونا فرسان سليمه
فالعزة يوم.. والرخصة ديمة
بعد المروق الصده حاره

والـــخـــلـــوق لـــقـــتـــالـــنـــا دايـــوة

الـحـديـث الـشـيـن هـو الـبـكـيـدنـا

أمـــا الـــقـــتـــال فـــإيـــاه عـــيـــدنـــا

وعند ذلك نهض الشيخ صارماً عازماً فألبسته بنته رقية دروعه، وهرع أبناؤه فتدرعوا وألبسوا خيلهم، وخرجت الأسرة المكونة من ستة عشر شخصاً تواجه جيشاً قوامه سبعمائة فارس في ملحمة مشهودة في تاريخ السودان. تصف المخطوطة المشهد فتقول[1]:

(.. فركب حصانه ومعه أولاده الخمسة عشر.. وانبرى ابنه الكبير حماد فبارز رجلاً فارساً مشهوراً أحضروه من جهة الصبح ليقتل الشيخ الأمين.. بارزه طويلاً حتى تمكن منه فقتله.. فتقدم قائد الجيش نفسه أبكر ولد وحشي طالباً من الشيخ الأمين المبارزة فخرج إليه في الحال وتمكن منه فجندله فتزلزلت أقدام السرية.. فدخل فيهم الشيخ الأمين وأبناؤه يعملون السيف ضرباً فدارت المعركة بصورة مروعة حتى ألقى الله الرعب في قلوبهم فانهزموا وتتبعهم أولاد الشيخ الأمين بالقتل حتى وقعوا البحر بخيلهم ويقال إن الحوت المسمى بالشلباية والكناكين تعلقت أشواكه بلبوس الخيل وخرج معها إلى الشاطىء الغربي بجهة أبي عشر.. ورجعت بقية الجيش إلى الشيخ ناصر بحلة ولد أبو فروع فتحير فكره..).

---

(١) مخطوطة العبدلاب: الشيخ عبد الله شاور، صفحة ١٤ وما بعدها.

وأيقن (ناصر) أن الشيخ الأمين لا يقتل إلا غيلة فهو لا يموت في قتال، ولذلك لجأ إلى الحيلة فدبر مكيدة جعل أداتها أحد رجاله ويسمى (أبو ريده ولد خميس) وكان يعمل رئيس نوبة ملك سنار. كان الشيخ الأمين قد ذاع صيته بعد تلك الملحمة.. ورجع من الهلالية إلى الحلفاية، حيث قابلته الجموع بالأناشيد والأغاني ولكنه لم ينعم بالراحة كثيراً فقد أتته الأخبار من جهة الشمال بأن ابنه عجيب الذي أرسله لجمع الخراج قد قتل في ديار الشايقية فجهز حملة.. وأثناء ذلك جاءه (أبو ريده) فتظاهر بأنه جاء هارباً من ظلم (ناصر) وأنه أتى ينضم لحملة الشيخ الأمين إلى بلاد الشايقية ولكنه كان يتحين فرصة لاغتيال الشيخ الأمين، وواتته تلك الفرصة على إثر خلاف حدث بين الشيخ الأمين وابن عمه (عبد الله ود عجيب)، وقيل إن الأمين صفع ابن عمه، فحقد عليه. ولما تحرك الجيش نحو الشمال بقي الشيخ الأمين في بلدة (بانقا) وحده. وهناك اتفق أبو ريده وعبد الله عجيب على الانسحاب سراً من الجيش والرجوع ليلاً إلى بانقا ومهاجمة الشيخ الأمين، ونفذا ذلك. ويصف شقير المشهد ويقول:

التجأ عبد الله بن عجيب ومحمد خميس أبو ريدة إلى حلة (بان النقا) بين قرى وشندي فوجدوه في منزله وحده فاحتالوا إلى أن صعدوا سطح البيت وأزالوا سقفه وصاروا يرجمونه بالحجارة من بعيد حتى قتلوه)[1].

---

(١) نعوم شقير صفحة ٨٧ الجزء الثاني، الطبعة الأصيلة.

ويقول شقير كذلك: (وتولى المشيخة بعده عبد الله ود عجيب وولي الشيخ ناصر على سنار).

أما المخطوطة فإنها تصف المشهد قائلة[1]:

(اجتمعوا كلهم لقتل الشيخ الأمين قبل عودة أبنائه بالجيش ولكن لما حضروا بمنزله لم يقدر أحد على الدخول عليه لهيبته فعلوا المنزل ونبشوا السقف وقتلوه برمي الحراب والسلطيات عليه وهو ثابت في فراشه، ولما رأى نفسه هالكاً طلب ابن عمه عبد الله ولد عجيب وأسلمه سيفه (. . . .) فمات رحمه الله تعالى بعد مضي عشرين سنة على ملكه ودفن بجوار الشيخ صالح ولد بانقا ثم خلفه في الملك ابن عمه. .).

وبعد:

وهكذا مات الشيخ الأمين ود مسمار الذي لم تفلح الفرسان في صرعه وجهاً لوجه في سوح الوغى ولم يفلح المتآمرون على اغتياله في مواجهته حتى وهو وحيد أعزل في داخل بيته فاضطروا لتسلق منزله واغتياله بتلك الصورة.

وكانت مدة حكمه عشرين عاماً ولكن كفاحه وبلاءه في الحروب استمر لأكثر من ثلاثين عاماً، إذ بدأت شهرته منذ أن كان فتى قائداً لسرايا جيوش العبدلاب.

وهكذا نستعيد بهذه الوقفة ذكرى رجل باسل لا يمكن أن

(١) مخطوط العبدلاب للشيخ عبد الله شاور صفحات ١٥ و١٦.

يقبل تاريخ السودان أن تطمس معالمه من على خارطة سير الشعب السوداني عبر الأحقاب في طريقه الطويل من أجل صنع حياته وامساك أزمة حياته بنفسه ككل شعب حر أبي مؤمن بأن من لا قديم له فلا حاضر عنده ولا مستقبل ينتظره.. وهذا ما يعلمه كل قادر حقيقي.. وأصيل..



من وثائق الاستقلال

صورة الوثائق التاريخية الخاصة باتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان والتي تم بموجبها استقلال السودان في يناير ١٩٥٦م وهي معقودة بين دولتي الحكم الثنائي بريطانيا ومصر.

في ذكرى الاستقلال

وقفة

حول أسلوب

المقاومة في السودان

في ذكرى الاستقلال ـ أسلوب المقاومة في السودان(١):

«إن شعبنا لم يهن.. وإنما استمر الكفاح على مر التاريخ.. يسقط الشهداء جيلاً بعد جيل.. ولكن الشعلة نفسها لا تنطفىء ولا تتوقف عن المسير.. استعملوا السلاح في معارك ضارية.. وعرفوا المقاومة عن طريق المظاهرة والاضراب ومواكب الثائرين في كل محل من أرض الوطن.. وفي كل وقت منذ هبوط الغزاة أرضنا عشية كرري (٢ سبتمبر ١٨٩٨م) وحتى انتصر كفاحنا العنيد باعلان استقلال الوطن وجلاء الغزاة يوم الأحد الأول من يناير سنة ١٩٥٦م...».

كتاب مهر الدم صفحة ٢١١ طبعة سنة ١٩٦٥م(٢).

قال الشيخ الفاضل وفيلسوف الإسلام الأكبر الشيخ

---

(١) نشر هذا المقال بمجلة الخرطوم في أول يناير سنة ١٩٧٠ في مناسبة احتفالات البلاد بذكرى الاستقلال المجيد.

(٢) كتابنا «مهر الدم تاريخ المقاومة السودانية» صدرت طبعته الأولى في نوفمبر ١٩٦٣م.

جمال الدين الأفغاني في مقال له (بالعروة الوثقى) الصادرة بباريس منذ ١٣ مارس ١٨٨٤م في مناسبة زحف قوات الثورة المهدية السودانية في سلسلة معاركها التحريرية ضد الغزاة الأجانب، قال في مناسبة زحف جيوش المنتصرين السودانيين نحو آخر معقل للأجانب.. نحو العاصمة الخرطوم حيث أقام غردون الحصون.. ونصب المتاريس وشق الأنفاق في آخر محاولة للدفاع عن العهد التركي المستعمر للسودان. قال الأفغاني في مقاله:

(المدافعة عن الوطن أمر طبيعي وفرض معاش يتكاتف في دعوة الطبيعة له الميل إلى الطعام والشرب، فليس يمدح القائمون ولا يثنى عليهم في أدائه - ولكن - تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مزايا التواريخ)..

إلى أن يقول:

(فإن الشريعة الإلهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه بل توجبه في مدافعة الباغين عليه، تدعو كل ذي عقل لأخذ الحذر من حيل المحتالين... الخ).

وكان الشيخ الفيلسوف بمقاله ذاك في جريدته الباريسية يحض المسلمين الذين انحازوا لجانب غردون وأدخلوه ليستعمر السودان، يحضهم على الرجوع إلى الجادة، مستصرخاً فيهم النخوات ومحذراً لهم بحكم الشرع الذي لا يرحم[1]...

---

(١) مجموعة العروة الوثقى باريس ١٨٨٥م.

وكانت تلك مرحلة من تاريخ المقاومة الوطنية عبر الأجيال، كانت مرحلة من أكثر أطوار تاريخ المقاومة السودانية توهجاً، كانت الدنيا كلها تتجه نحو (غردون) المحصور في الخرطوم، وكانت الامبراطورية التي لا تغيب الشمس عن أملاكها مطلقاً وتحت قبضتها تقبع في خضوع أكبر وأعظم أقطار آسيا (كالهند والصين) وأكبر الأقاليم في أفريقيا جنوباً وشرقاً، كانت بريطانيا العظمى بكل صولجانها حيث كانت القوة العالمية الكبرى، كانت مشلولة عاجزة إزاء التحرك السوداني الباسل الذي سطر في ذاكرة البشر إمكانية انتصار الشعب الأعزل على الجيوش المدججة بالسلاح إذا كان الإيمان وقوة البأس تعمر القلوب، فشهد عالم القرن التاسع عشر انتصار السيف على المدفع وانتصار الوحدة الوطنية السودانية على خطط خريجي كليات الأركانحرب الانجليز في (معركة شيكان) بكل علمهم العصري وسلاحهم الناري.

ويقول (شاهد من أهلهم)[١] وهو شاهد عيان وهو مراسل جريدة التايمز صحب حملة (هكس) إلى السودان، يقول (فرانك باور) في رسالته لجريدة التايمز العدد تاريخ ١/ ٩/ ١٨٨٣م يقول:

(لست أشعر بالخجل حين أقرر شعوري بالاكبار لهؤلاء السودانيين الذين إنما يحاربون ببأسهم الشجاع كلّ ما أثقل

(١) Frank Power تنظر مجموعته Letters from Khartoum during the Siege.

كاهلهم من نظام حكم فاسد، وإني لأرثي الآن لهكس فهو قادر وطيب ولكنه ماذا يفعل؟) ويقول كذلك:

(رجل واحد من هؤلاء الثوار الفوارس يستطيع أن يجعل مائتين من رجالنا يهربون أمامه وهم مسلحون بالرمنتجون).

وتمضي أحداث تلك الفترة البارزة التوهج في تاريخ مقاومة شعب باسل إباءً للضيم والذل مهما كانت قوة الغازي واستبداده تمضي في التصاعد وأنفاس الدنيا مبهورة تشهد بداية عصر تحرك شعوب المستعمرات من قلب أفريقيا طوابير السمر السودانيين[1]، بكل لهجاتهم وكل سحناتهم يتجمعون من كل فج حول قائد بطل في أروع وحدة قومية جنوداً في جيش الوطن الواحد[2] ضد أعدائه غزاته منتهكي الحرمات. ومتى كان ذلك؟ كان ذلك في عصر قهر الشعوب، حين ساد قانون الغاب واقتسم البيض الأقوياء بلاد السود والملونين الفقراء، واستكانت شعوب كثيرة، لذلك بهر عالم القرن التاسع عشر وهو يرقب بالاعجاب والاندهاش سير جموع جيوش المقاومة السودانية في قلب أفريقيا تغلب القاعدة، وتكتسح في موجات لا تلين مواقع الغزاة الأقوياء في سلسلة انتصارات مستمرة منذ معركة ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١م في أبا وقدير في ديسمبر ١٨٨١م وتقلى والأبيض في مايو سنة ١٨٨٢م وشيكان في نوفمبر سنة ١٨٨٣م حتى دقوا أبواب العاصمة الخرطوم

---

(١) ينظر هولت في «تاريخ السودان الحديث» A Modern History of the Sudan.

(٢) ينظر عبيد عبد النور في كتابه «الثائر الأول».

اقتحموها في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥م وحينذاك لا تملك جريدة التايمز)[١] العجوز الوقور إلا أن تسوق لشعب ورعايا الامبراطورية العظمى خبر سقوط الخرطوم واندحار القوات الانجليزية والتركية في أمر العبارات فتقول التايمز: (ننشر الآن آخر رسائلنا من الخرطوم، ولا يوجد انجليزي يقرأها دون أن يحس بالفخر ومسحة الخجل في وقت واحد).

الفخر لأن سلسلة واحدة من الأمجاد الانجليزية في سبيل الواجب أداها رجال عظام جنرال غردون (الشهيد) على رأسهم ويتبعه كولونيل (ستيوارت) وفرانك باور والآخرون.

أما الخجل فلان الحكومة لم تستطع أن تفعل الكثير من أجل إنقاذهم...

وفي يناير ٢٦ سنة ١٨٨٥م توجت أبرز مراحل التحرك السوداني الوطني في القرن التاسع عشر بالانتصار المسلح الحاسم بعد معارك عسكرية قاسية استمرت لأربع سنوات ودارت رحاها في مناطق شاسعة من القطر السوداني حتى وصلت ذروتها حين اكتمل تجمع السودانيين جميعاً في قواتهم، وبرزت من خلال الأتون الاخوة الوطنية وتلاحم الشعب القومي في أنصع أسلوب عرفه تاريخ المقاومة الشعبية، في هذا العالم سادت روح الطهارة والبذل الأمين بلا تراجع أو تردد وانصهرت دعاوى القبلية والطائفية الدينية ليبرز الكيان

(١) تنظر مجموعة جريدة التايمز الانجليزية لسنة ١٨٨٥م.

القومي للسودان جنداً بين الجنود يرتدون من الثياب أكثرها شظفاً، ويعيشون كبيرهم وصغيرهم، رئيسهم والمرؤوس، في أقصى درجة من المساواة في أخذ الأنفس بالتقشف والارتقاء بحاجات الإنسان الدنيوية إلى درجة عظمى من الرنو إلى مثل أعلى يحتقر صغائر العيش ويركز ناظريه نحو الهدف الأسمى المشترك من أجل الدين والوطن، ولم يكن بعد ذلك ممكناً للمدافع الصاروخية ولا البنادق الرمنجتون ولا لخطط خريجي الأكاديميات العسكرية الانجليزية، ولا لكل وسائل الحرب العصرية التي جاء بها الغزاة، لم يكن لها إزاء ذلك الجدار البشري الباسل من سبيل لتحقيق قصر وإذلال شعب، بل لم يكن ممكناً أمامهم إزاء ذلك الارتقاء والاعتلاء البشري المعجز إلا إدراك المصير الذي كتب عليهم، فسحقوا سحقاً، ودمروا تدميراً على مدى أربع سنوات في مختلف بقاع الوطن السوداني ولم يتمكنوا حتى من الفرار.

ورفعت راية الثورة السودانية على قصر (غردون) صبيحة ٢٧/ ١/ ١٨٨٥ وأعلن أن السودان قد حقق الاستقلال الوطني بحد السيف، وشهد نيلنا العظيم الرابض في هدوئه الأبدي، شهد سليل الفراديس جموع السمر البواسل، تطهّر من أمام القصر في الخرطوم ضفافه من دنس غزاته وتمهر بالدم الزكي الغالي حرية الوطن فتؤكد كلمات فيلسوف الإسلام (جمال الدين الأفغاني) في تيقنه الأكيد من انتصار حق السودانيين على باطل الترك والانجليز.

ونشأت دولة مستقلة ذات سيادة في قلب أفريقيا، ودارت الأحداث داخل الوطن وعلى نطاق العالم الخارجي. في داخل الوطن واجهت دولة السودان الحر المستقل في القرن التاسع عشر مشاكل ما بعد التحرير وواجهت أحقاد الطامعين والذين خدش كبرياؤهم خارج الوطن، وواجهت مشاكل حداثة انصهار دعاوى العصبية القبلية، كل ذلك واجهته بلا معين من ضمير خارجي عالمي يلهم أو يعين، ودون ذخيرة من خبرة وعلم محلي عميق يمكن القادة من تبصر الطريق في وضوح. كل ذلك وأبشعه أن الثورة كانت قد فقدت قائدها الملهم الذي آمنت به الجموع وأحبته وصار أمام ناظريها الرمز المجسد لكل الأمجاد التي صنعها زحفهم الجبار، ولذلك فعندما توفي القائد الملهم (المهدي) فإن صدمة بالغة هزت كيان التماسك القومي. وقد حاول خليفته وحاول وقاد الوطن وسط كل تلك الأعاصير الهوج واستطاع أن يحقق الكثير وأن يحتفظ بالسودان دولة مستقلة ذات سيادة في وسط بحر متلاطم من النفوذ الأوروبي الظاهر والمستتر في كل الأقطار حول السودان. احتفظ الوطن باستقلاله ودولته الحرة أكثر من ثلاثة عشر عاماً كاملة وسط كل تلك المهددات، ولكن منطق الغاب قاد القوى الكبرى الأوروبية للمزيد من الإصرار على قهر وابتزاز الضعفاء في آسيا وأفريقيا فتقاسموا مناطق النفوذ خاصة منذ اتفاقية سنة ١٩٠٤.

حينما أمكن لانجلترا أن تحزم أمرها في تحقيق استعمارها للسودان لتضمه لمنطقة نفوذها (مصر) ولتثأر من

الذين مرغوا كرامة بريطانيا العظمى ولترضي الوعود السياسية للشعب الانجليزي من الثأر لغردون وصحبه.

وكان غزو جديد للسودان أكثر شراسة وإصراراً، وشهد (سرايا الحاكم العام) في ضفة النيل في الخرطوم، شهدت جحافل (كتشنر) تقتحم السودان بعد معركة كرري في ٢/٩/١٨٩٨ واغتيل استقلال الوطن وسقطت دولة السودان المستقل الدولة المركزية الأولى التي أنشأها الثوار في سنة ١٨٨٥م واتخذت من (ام درمان) عاصمة رسمية لها. سقطت دولة الوطن الحرة، وواجه السودانيون فترة عصيبة مهولة جديدة. فهل استكان شعبنا العظيم كما استكان كثيرون حوله وقريباً منه؟ هل انطفأت روح الإباء وميراث مقاومة المذلة بين شعبنا؟ التاريخ يقول لا..

وكتاب مهر الدم يصوغ منطق التاريخ وحقائقه في صفحة ٥٧ من طبعة سنة ١٩٦٣ الأولى فيقول[١]:

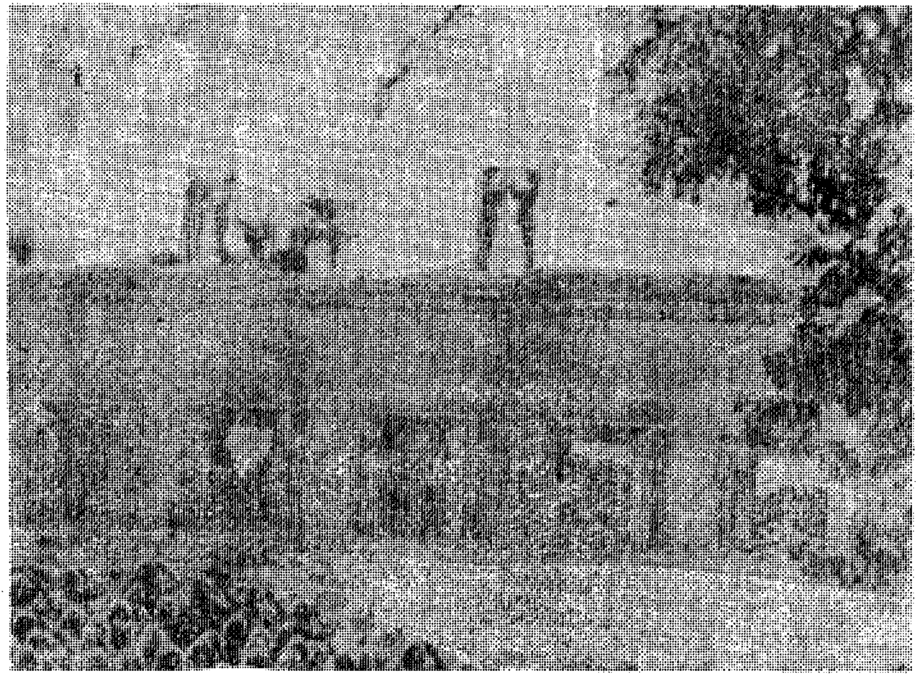
(لم يستكن شعبنا ولم يذل.. وكيف يستكين أو يذل أبناء وأحفاد الرجال الذين حققوا بحد السيف الحرية لأمتهم في أحلك ظروف؟).

---

(١) نفس المصدر كتابنا «مهر الدم ـ تاريخ المقاومة السودانية».

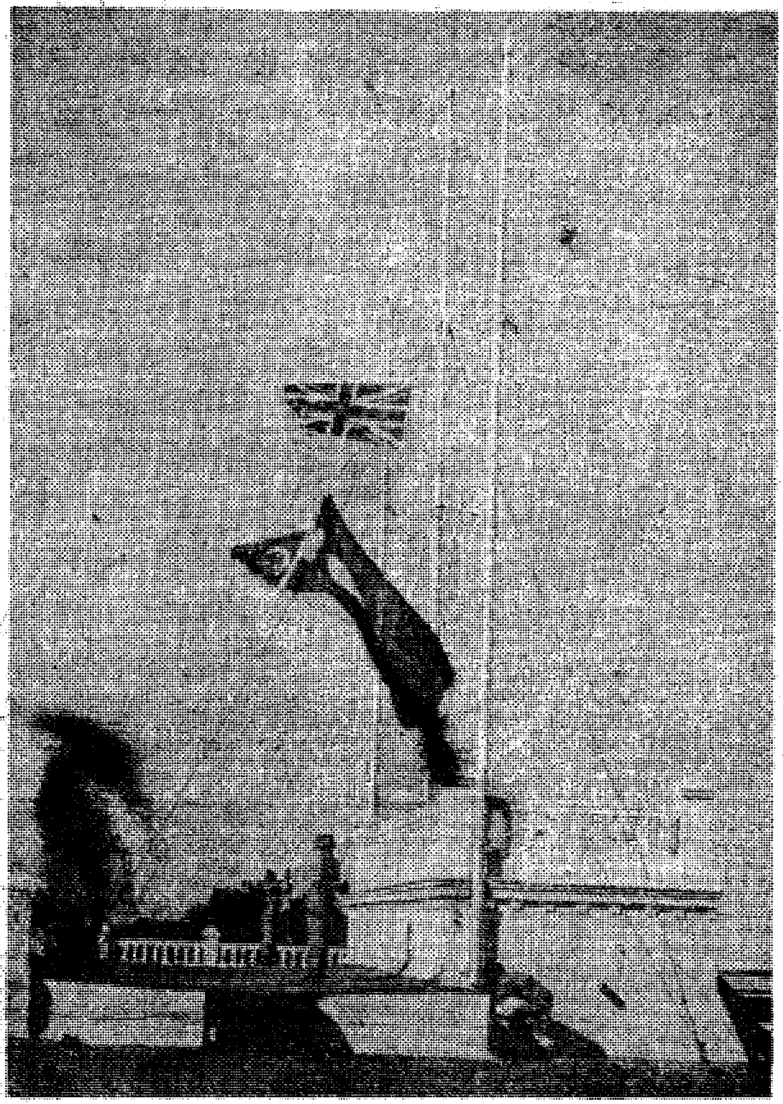
كذلك يقول نعوم شقير في كتابه تاريخ السودان وجغرافيته طبعته الأصيلة الصادرة في سنة ١٩٠٣م يقول في هذا المقام في صفحة ٣٧٤ ما نصه حرفياً:

«قد اهتز لمهدي السودان العالم الإسلامي في جميع الأقطار، وهاجر إليه جماعة من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب قصد زيارته والوقوف على حاله ولو أطال الله في أمده وزاد في توفيقه لقلب وجه الشرق انقلاباً عظيماً...».



آلمشهد التاريخي

قوات الغزو الأجنبي بعد معركة كرري مباشرة في ٢/٩/١٨٩٨م تنزل الراية السودانية من السارية لترفع العلمين الانجليزي والمصري محلها في بداية عهد الحكم الثنائي.



في يناير ١٩٥٦م، الراية السودانية ترتفع مرة أخرى إلى مكانها في أعلى السارية وتطوى أعلام الغزاة في نفس تلكم اللحظات تأكيداً لاستعادة الوطن حريته واستقلاله.. وبين المشهدين سقط آلاف الأبطال حتى يمكنونا من العيش الكريم.

كيف يستكين أبناء وأحفاد المنتصرين في تقلى وقدير وشيكان والخرطوم.. الخ؟

وتتخذ المقاومة السودانية على أيدي الأجيال الجديدة من أبناء السودان شكلاً جديداً لها تفرضه طبيعة الجو الذي خلقته القبضة الوحشية الشرسة لقوات الغزو في اصرار عنيد على ترويض شعب جسور، مستفيدين إلى أقصى درجة من تجاربهم القاسية المرة على أيام (غردون وهكس واستيورت) ووضع دهاقنة وزارة المستعمرات البريطانية تخطيطاً محكماً يضع كل الاعتبارات والسمات والخصائص التي تميز شعب السودان في اعتبارهم وخطاب قنصلهم لورد كرومر (الفيكونت كرومر: معتمد الدولة البريطانية السياسي وقنصلها الجنرال في مصر) قال:

(عند زيارتي قبل الآن للسودان قلت لكم إنكم ستكونون في المستقبل تحت حكومة كل من جلالة ملكة انجلترا وسمو الخديوي المعظم، ولقد صدرت لي الأوامر الآن من صاحبة الجلالة مليكتي العظيمة التي تحكم في غير هذه البلاد ملايين من المتدينين أمثالكم بالدين الإسلامي لأعرب لكم عن مزيد اهتمام جلالتها بكل ما يؤول إلى سعادتكم) إلى أن يقول:

(العهد الذي عاهدتكم عليه هو احترام ديانتكم وعوائدكم لذلك أنشئت لكم المحاكم (والمدارس) وضربت على أطيانكم ضرائب خفيفة جمعت منكم بلا إكراه ولا ظلم، وإن حكامكم ليسوا فقط ذوي مقدرة تفوق مقدرة الحكام السودانيين السالفين

بل إن قلوبهم قد أشربت روح العدالة والرغبة في كل ما من شأنه النفع العام لجميع أهالي السودان، وهذا كله لم يكن له أثر حين كان حكم الدراويش محيقاً بكم) إلى أن يقول (وقد عني بانتخابات المنتدبين للخدمة في بلادكم عناية تامة).

أما في خطابه بتاريخ ٢٧/ ١/ ١٩٠٣ فإنه يقول[١]:

وأقول لكم إن المساعي التي يبذلها جميع موظفي السودان من ملكيين وعسكريين في سبيل ادخال النظام والتمدن إلى هذه البلاد لها عند صاحبة الجلالة وعندي قيمة عظيمة. . .

وان نتائج نسقنا التعليمي تظهر بأجلى مظاهرها في بلادكم السودان، فالشاب الذي يتربى في إحدى مدارسنا أو كلياتنا ينشأ على الاستقلال الذاتي والمسؤولية الشخصية ولا يعول في الدنيا على أحد لأنه يتلقى في حداثته مبادىء تضمن له مستقبلاً نيراً كما هو خليق بفرد من أفراد أمة مستعمرة مجيدة. . . الخ)[٢].

---

(١) ينظر نص خطاب لورد كرومر حرفياً في صفحة ٦٧٨ طبعة سنة ١٩٠٣ من كتاب شقير - تاريخ السودان وجغرافيته - كان ذلك في زيارته للسودان في ٢٤/ ١٢/ ١٩٠٠م. جدير بالذكر أنه منح آنذاك بعض الأعيان في السودان أوسمة ملكية بريطانية تقديراً لمساعدتهم بريطانيا في فتح السودان!! أنظر شقير في المصدر المذكور نفس صفحة ٦٧٨.

(٢) كذلك ينظر في نقطة اختيار أعضاء خدمة السودان من الانجليز كتاب «دنكان» طريق السودان إلى الاستقلال The Sudan's Path to Independance، وهو يقول في صفحة عشرة معدداً أسباب الانجليز لإعادة فتح السودان كالآتي: الثأر لغردون، إعادة الأوضاع كما كانت قبل الثورة لأن مرحلة الزحف الاستعماري القوي لأفريقيا كانت قد بدأت.

وهكذا، يأخذ تخطيط الغزاة الجديد في اعتباره خصائص الشعب وطبيعة بلاده وعادات أهله ويبني على أساس ذلك كله مخططاً في نظام استعماره، يرعى عوائد السودانيين ولا يستفزهم، ثم يعمل على اقتلاع جذور ما ملأ قلوبهم من اعتزاز قومي واستعداد للبذل وذلك عن طريق قهر الجيل الذي عاصر ثورة السودان الكبرى على عهد المهدي حتى انتصرت وأنشأت دولتها الحرة المستقلة لأكثر من ثلاثة عشر عاماً، لأن هذا الجيل رأى من تقاليد النصر السوداني الوطني ما غرس عميقاً في قلوبهم ولا بد أنهم سيعملون من جديد لاشعال وبعث الجذوة.

ثم الاهتمام بالجيل الناشيء على أساس إعادة تركيبه (وتربيته) في المدارس ذات النسق البريطاني ثم تحبيب تطلعات وأسلوب جديد خاص في الحياة لنفسه كمثل ينشده حتى ينزع بذلك من موروثات شعب بلاده والتشرب بخصائصهم المعروفة (فيضمن الفاتحون بقاءهم) كما جربوا في أقطار أخرى في آسيا وأفريقيا.

وتجد هذا التطبيق لهذه السياسة في أبرز وجه في مرحلتين: مرحلة القوة والبطش الهمجي، حيث قتل الخليفة الشريف وابنا المهدي في الشكابة في ١٨٩٩/٨/٢٧م بطريقة بالغة اللؤم والفظاظة دون استناد على أيّ مبرر معقول.. كما بذل جهد أسطوري في تتبع عثمان دقنه حتى أسر فعلاً في ١٩٠٠/١/١٨م وقوبلت محاولات التمرد الشعبي في تقلى

ودارفور ومركز كادقلي وتلودي ثم في حركة سنة ١٩٠٨ بقيادة ود حبوبة في الحلاويين بالجزيرة، قوبلت جميعها بمنتهى الفظاظة الوحشية، قطعاً لدابر روح المقاومة في الشعب وزرع روح الخوف والاستكانة.

ثم نجد التركيز بعد ذلك في محاولات انشاء جيل من أبناء المدارس على التركيبة التي كانوا قد ظنوا أنهم قادرين بها على خلق جيل سوداني متنكر لكل مثل بلاده وسمات أهله، فيكون مسخاً مشوهاً صنيعة للغزاة.

فهل نجح أسلوبهم الجديد؟

كلا.. فإن روح المقاومة في الشعب الأصيل لم تقهر قط والارهاب والبطش أكسب الرجال ثباتاً على ثباتهم، ونقلوا لأبنائهم في جيل المدارس الجديد أمانة الوطن الكبرى ألا وهي روح العزة التي لا تخبو، وميراث مقاومة سودانية باسلة على مر العهود. ووعى الجيل الجديد ما علمه وطنه، وتصدى لأخذ الشعلة والسير بها من جديد مستفيداً كما استفاد الغزاة من روح العصر ومكتسباته الحديثة.

فكان الأسلوب الجديد في سلسلة المقاومة الوطنية في السودان.

بدأ ذلك ببداية المدارس وتخرج أعداد من المتعلمين السودانيين واستطاعتهم الاستفادة من حصيلة المعرفة (في الاتصال الفكري بالدنيا حول وطنهم) في بداية قرن جديد

(بدأت فيه الشعوب المستعمرة تتمرد على جلاديها وتبتكر أساليبها في النضال (أسلوب المؤتمر الهندي) (أسلوب الصين التمردي. . . الخ).

وبحلول سنة ١٩٢٢م استطاعت حلقة المقاومة السودانية أن تتبلور من جديد في شكل منظم بميلاد (جمعية الاتحاد السوداني) بقيادة دم جديد من أبناء السودان كان أبرزهم المناضل (عبيد حاج الأمين)، ثم أعقب ذلك ميلاد جمعية اللواء الأبيض بقيادة علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين، وكانت أكثر أثراً وعلانية فبدأت أسلوب المظاهرات المعادية للاستعمار في علانية وتحدٍ، بدأتها بمظاهرة ١٩/٦/ ١٩٣٤ بقيادة الشيخ عمر دفع الله وكانت فروع اللواء الأبيض قد انتشرت في مختلف بقاع السودان، بورتسودان، عطبرة، مدني، كسلا، ملكال، خرطوم، أم درمان. . . الخ. لذلك تفجر الموقف فجأة في بلاد السودان عندما بدأ الانجليز حركة بطش لاجتثاث قيادة الجمعية فاعتقل جميع الزعماء في الخرطوم وفي الأقاليم وزج بهم في سجن كوبر ولكن الشرارة كانت قد انطلقت وتحرك البركان الذي يعرفه الانجليز من جديد بعد أن استعاد أنفاسه بعد نكسة كرري وما أعقبها من إرهاب. تفجر البركان، فلم تعد الاعتقالات ولا السجون ولا البطش بقادر على حسر المد الوطني العارم. ومضت المدن والأقاليم تموج بروح التمرد والثورة والغليان وتتفجر في مظاهراتها المستمرة حتى اتخذ ذلك شكلاً أكثر دقة يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٢٤م حين خرج طلاب الكلية الحربية في أم



عبيد حاج الأمين

أحد أبطال ثورة ١٩٢٤م ومفكريها، سجن وشرد، ولكنه صمد كبطل، يرقد رفاته الآن في مدينة «واو» عاصمة مديرية بحر الغزال.

درمان بمظاهرة عكسرية تحمل السلاح بقيادة الطالب العسكري (محمد فضل الله) ومضت تشق شوارع العاصمة تهتف بحياة السودان وسقوط غزاته الأنذال وتعاهد الشعب على انضمام شبابه إلى صفوفه في ثورته العاتية، وبذلك تأكد أي روح ذلك الذي يورثه الوطن لأجيال بنيه.

وتطورت روح الثورة التي ماجت بها أرض السودان طويلاً إلى مواجهة مسلحة كاملة في ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤م حين قاد عبد الفضيل ألماظ ورفاقه بلتوناً مسلحاً واجه القوات الانجليزية جنوبي كوبري النيل الأزرق فدارت معركة عسكرية باقية بارزة في تاريخ المقاومة الباسلة في تقاليد الشعب السوداني، إذ واجهت قلة من شبابهم لا تزيد عن مائة وعشرين كل القوات الانجليزية في العاصمة وقاتلت بمرارة حتى آخر طلقة من رصاص وشاع ذلك في كل القطر فتحركت كل القوات السودانية العسكرية في كل السودان من (١٠ جي أورطة سودانية) في واو إلى (١٣ جي أورطة) في الأبيض، وتأكد بشكل حاسم تلاحم القوى السودانية التي تلقت تدريباً عسكرياً مع ثورة شعبهم، فأكد ذلك وضوح مسار الثورة وقيادة الجيل الجديد من المتعلمين (مدنيين وعكسريين) لها فأنتج ذلك في نهاية الأمر تشكيل التنظيم الشعبي القائم على نطاق القطر بقيادة المتعلمين فكان ميلاد (مؤتمر الخريجين) في فبراير سن ١٩٣٨م، فكان دخول مرحلة المقاومة الشعبية بأسلوبها الجديد مرحلة التنظيم العصري في التخطيط والالتحام المنظم بالجماهير. واستمر النضال وسقط الشهداء في عام ١٩٤٨م

وغيره وتأكدت حقيقة انبعاث روح المقاومة السودانية الموروثة بروح وأسلوب جديدين فكان لا بد من الوصول بالراية إلى مداها: الانتصار أو الفناء. وتحقق النصر الكامل الجديد في ضحى الأحد أول يناير ١٩٥٦، حين نكست من على سارية القصر نفسه راية المستعمر الغازي لترتفع في نفس تلكم اللحظات الراية السودانية تؤذن بميلاد دولة مستقلة لشعب باسل عظيم الحيوية، وشهد الرابض العتيد نيلنا الخالد المشهد يتكرر، تطوى أعلام الغزاة وتفرد على سارية القصر راية السودان المستقل.

ويسجل التاريخ قصة وطن بشعب حي لا يموت.

معركة شيكان[1]

دراسة في الدلالات المعنوية والقومية والعسكرية

> «. . . في الوقت الذي كانت تنضج فيه عوامل السخط والتبرم والضيق بالحكم التركي المصري ويتضح الضعف والعجز فيه. . في هذا الوقت كان المهدي يهب لأهالي السودان القيادة الثورية الملهمة. . فلقد صهرت روح المهدي أزمة روحية عميقة. . . وكانت مناداته بالمهدية محاولة منه ليبث في بيئته ومجتمعه روح التغيير التي امتلكت عليه أنحاء نفسه. . . الخ.
>
> حتى يقول:
>
> «كان المهدي في لغته يستند على حصيلته الخاصة من المجاهدة والسلوك الصوفي وحصيلة الجمهور الصوفي في التربية الصوفية فكان بذلك أكثر الهاماً وأقرب إلى الذهن والوجدان. . ».
>
> من كتاب الصراع بين المهدي والعلماء اصدار شعبة الأبحاث في سنة ١٩٦٨م.

. . وهذا النهج في النظر المحلل لاحداث الثورة المهدية ١٨٨١م حتى ١٨٩٨م بهدف الخروج بدراسات تحليلية، تستطيع تشخيص الجانب الفكري والفلسفي المتكامل، الأساس الأكبر الذي كانت الأحداث المتلاحقة مجرد خطواته

---

(١) نشرت الدراسة بمجلة الخرطوم عدد يونيو ١٩٧٢م.

ومراحله التنفيذية، هذا النهج في التناول هو ـ كما أعتقد ـ المهمة الضخمة أمام كل المهتمين بجوانب الدراسات السودانية خاصة لذوي النظر الحديث والمدارس الفكرية غير الكلاسيكية، وهذا هو عين ما عنيته منذ ١٩٦٣ حين صدرت الطبعة الأولى من كتابي تاريخ المقاومة الوطنية[١]، إذ أفردت جزءاً كاملاً من الكتاب باسم «الجانب الفكري للثورة المهدية» كان في مدى علمي أول محاولة في هذا الاهتمام المتفرد المكرس للدراسة في الجوانب الفلسفية للثورة المهدية وارتكز ذلك الجزء بأكمله في مناقشة جرت بدايتها كما يلي:

«نصل حديثنا فنسأل هل كان للثورة المهدية منهج فكري وأهداف لمجتمع جديد تريده؟

إننا نتلمس الإجابة على سؤالنا في واقع الثورة وخلفياتها وفي مصادر محددة ثلاث شكلت تكامل الجانب الفكري الواضح لهذه الثورة. . هذه المصادر الثلاث هي (أ) المناشير (ب) السلوك العملي (ج) هيكل الدولة ونظمها. . الخ.».

. . هذا النهج في دراسة الثورة المهدية هو في رأيي ضرورة عاجلة تفرضها طبيعة الدراسات المنهجية التي أضيرت كثيراً في دراسة هذه الحقبة بحكم الوضع الغريب الذي خلقته حقيقة كون أن أول المتصدين للتدوين المنظم في تاريخ هذه

(١) الإشارة لكتابنا مهر الدم ـ تاريخ المقاومة الوطنية في السودان ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣م.

البلاد كانوا من الأجانب الذين قادتهم إلى هذه الديار ظروف خاصة بهم ترتبط باهتماماتهم ومصالحهم ومصالح القوى التي يخدمون (وهي قوى مضادة للثورة ذاتها) وقد كان مما يخدم تلك المصالح الغريبة أخذ الحوادث من وجهة نظر خاصة تهمهم وتخدم أهدافهم في الدخول إلى السودان.

تفرض تلك الضرورة ثانياً مرحلة الاستقراء والتفسير الهادىء لتلك الثورة باعتبارها تراث هذا الشعب وركيزته الأساسية في بنيانه القومي في ماضيه وحاضره ومستقبل صنع أجياله.

بتلك التقدمة الضرورية أردت أن أقول إنني أستفيد من ذلك المنهج بدراسة في معركة شيكان، تستهدف ابراز الدلالات المختلفة التي تؤكد الحقيقة في أن أحداث تلك الحقبة لم تكن من صنع الصدفة ودروشة الدراويش(١)، فالصدفة والدروشة لا تصنع ثورة في القرن التاسع عشر تربط ملايين السكان في قطر واسع شاسع متعدد الولاءات والقبائل واللهجات ويقع في قلب قارة أفريقيا التي كان الظلام والتخلف يمسكان بأنفاسها في غياب ضمير عالمي وعطف أممي أصبح في عصرنا الحالي هو وقود كل حركات التمرد والثورة الداعية لحق الإنسان الأزلي في الحرية والعيش المستقل الكريم.

(١) هذا المصطلح هو الذي استعمله كل من كتب من المؤرخين الأجانب الأوائل في وصف المهدية، استعمله الانجليز كغردون وشرشل والنمساوي سلاطين واستعمله شقير «الشامي» كما استعمله إبراهيم فوزي «المصري».

وإنني إذ أبدأ بهذا النظر مع معركة شيكان فذلك لأنها في رأيي تجسيد بارز للمعاني والدلالات المتصلة بالفكر والتخطيط في كل الجوانب، ولأنها في الوقت ذاته تمثل قمة انتصارات الثورة المهدية وبروزها النهائي كمنارة ضخمة تلتف حول ضيائها قلوب الأغلبية العظمى من السودانيين في تلك الحقبة بمشاعر الإيمان والأمل والاندهاش الفخور:

أ ـ شيكان ـ دلالات معنوية:

بدأ محمد أحمد المهدي ـ هذ القائد العظيم ـ تنفيذ ثورته الشعبية بموقعة ابا في ١٢ أغسطس ١٨٨١م، وكان كل جنده مائتين من الرجال، سلاحهم الحراب والسيوف في حين كانت حملة الحكومة تتسلح بالمدافع والبنادق والوسائل الجديدة في الزي والتكتيك والخطط العسكرية، ومع ذلك انتصرت قوة المهدي المحدودة الضعيفة على أعدائه. ومنذ تلك الموقعة تلاحقت الأحداث، فالحكومة تبعث بتجريداتها وجيوشها وتضع كل إمكاناتها المتطورة في حربها ضد الثائر السوداني ورجاله، والقائد المهدي، في الناحية الأخرى يتصدى للحملات والتجريدات واحدة بعد أخرى، فيحطم وينتصر في معركة قدير في ديسمبر ١٨٨١م ضد حاكم فاشودة، ومعركة جبل الجرادة مايو ١٨٨٢م ضد يوسف باشا الشلالي، واقعة الطيارة والبركة أغسطس ١٨٨٢م، واقعة بارة في يناير ١٨٨٣م، ثم معركة الأبيض حاصرها حتى استسلمت في ١٩ يناير ١٨٨٣م. هذا في منطقة غرب السودان وفي مناطق أخرى

كذلك كان الثوار يقاتلون ويضعفون قوات الحكومة: محمد زين في منطقة أبي شوكة، عمر المكاشف في البركة، المضوي عبد الرحمن في منطقة سنار ود الصليحابي في الجبلين، عبد الباسط الجمري في الدويم، فضل الله ود كريف في ام سنطه ومعتوق، أحمد المكاشف في سقدي وموية، الحاج أحمد عبد الغفار في منطقة الروصيرص.. وهكذا..

وبذلك وفي أقل من ثلاث سنوات اشتعلت الثورة واكتسحت أنحاء القطر من أقصاه إلى أقصاه وتزلزلت الامبراطورية المصرية في السودان التي بنى عليها حكام مصر الأتراك أعظم أحلامهم منذ دفع محمد علي باشا الكبير بابنيه (إبراهيم وإسماعيل) في حملة الغزو الأولى في ١٨٢١م مستفيداً من تفوقه الحضاري في آلة الحرب وعدتها وأساليب الإدارة ونظمها المستمدة من حضارة ذلك القرن، في حين كان أهل السودان يعيشون مرحلة البداوة والتخلف معتصمين بسماتهم ومفاهيمهم المستمدة من مرحلة تاريخية حضارية عميقة وأصيلة وذات جوهر نقي ولكنها تأخرت عن اللحاق بخطى التواكب في صراعي الحضارات وقانون التطور والتجدد ففاتها ركب الحياة الجديدة.

وحين جاءتهم حضارة العصر متمثلة في مدافع وبنادق جيوش محمد علي، أدركوا تماماً أن صفات الشرف والشجاعة والصمود المقدام، هذه السمات العميقة في تكوينهم، لم تكن وحدها كافية لصد الغزاة وآلة الحرب الكاسحة الحديثة التي

جاؤوهم بها.. فاندحرت مقاومة السودانيين ثم استغل غزاتهم تفوقهم المادي أبشع استغلال فعاثوا في الأرض فساداً وأذاقوا أهل البلد أنواع المهانة والاستنزاف.. وقمعوا بوحشية في ذات الوقت كل الهبّات والانتفاضات المضادة حتى خيل إليهم أن روح المقاومة في ذلك الشعب العنيد المقاوم قد تحطمت وأنهم قد استكانوا صاغرين لمنطق البطش والجبروت.

ولكن وبعد ستين عاماً تحرك البركان من جديد، بتلك الصورة العنيفة، وألقى بالحمم، ومضت الانتصارات تتوالى: قوات المهدي تحطم وتنتصر لا شيء يقف في طريقها وأهل السودان يتحركون ينتظمون في صفوف الثورة، وآلام السنين ومشاعر المهانة التي اختزنتها النفوس عشرات السنين تتفجر، ومشاعر الشعب العظيم الاعتزاز بأصله وكرامته تبرز بقوة.. وكل معركة، كل انتصار تتناقله الركائب عبر القطر، يشد من الأزر ويقوي التحرك والروح تعود والبركان الهامد يتفجر..

وكانت تلك أعظم دلالات نجاح الثورة دفعة الأمل وروح الاعتزاز، الشحنة المعنوية الدافقة.

ب ـ شيكان: دلالات قومية:

يقول شقير(١): انتدب المهدي رجلين من أصحابه هما محمد المغربي وود جلي دابي وأرسلهما بخطابين إلى سعيد باشا الحاكم باسم الحكومة التركية، والثاني إلى سكان المدينة

---

(١) ينظر شقير ـ تاريخ السودان وجغرافيته ـ النسخة الأصيلة طبعة ١٩٠٣م.



معركة شيكان ٥/ ١١/ ١٨٨٣م

الكماشة الحربية: أبو عنجة وجنوده يتخذون مواقعهم في أعلى أشجار الغابة المحيطة بالموقع المحصور الذي دارت فيه المعركة ـ منطقة علوبة ـ كازقيل ـ قرب مدينة الأبيض.. «نقلاً عن كتاب مهر الدم».

من علماء وتجار وأعيان وغيرهم دعاهم فيهما إلى التسليم وحقن الدماء، فدخل الرسولان المدينة وكل منهما متقلّد سيفه وحربته في حالة من الحماس الطاغي ومشاعر الاعتزاز يشيران للحكام الأتراك والمصريين يتهددان ويتوعدان في استخفاف تام.

وفي مكان آخر يقول الدكتور شبيكة[1] واصفاً رد فعل الأهالي البسطاء في طريق حملة الحكومة ضد المهدي: «لم تقابلهم إلا قرى مهجورة تركها أهلها حتى لا يكونوا عوناً لجيش هكس حتى إنهم قرروا لعدم معاونة الأهالي ومظهرهم العدائي ألا يتركوا حاميات خلفهم تحمي ظهر الجيش الزاحف..».

ويقول أيضاً: «هذا الجيش التركي توغل في أرض عدوه منذ فارق النيل السكان يتنحون عن طريقه يحملون ما أمكنهم حمله وما بقي يضرمون فيه النيران.. لم يلقهم ولا وطني واحد يرضى أن يكون حلقة اتصال بينهم وأخبار المهدي، ولو رضي واحد بذلك يتجه بأخبار الحملة ذاتها إلى المهدي..».

هذه النماذج في السلوك تشكل صورة واضحة للمشاعر التي ملأت أهل السودان في ١٨٨٣م أيام معركة شيكان، يستوي في ذلك المحاربون المنضوون تحت راية المهدي كما رأينا في سلوك الانفة والتعالي القومي من الجنديين حاملي

(١) ينظر الدكتور شبيكة في كتابه «السودان في قرن».

رسالة المهدي إلى مدينة الأبيض كما يستوي في ذات السلوك سكان القرى البعيدة أولئك البسطاء الذين يفضلون إضرام النار في قراهم وحرقها حتى لا تجد قوات الحكومة الزاحفة أي مساعدة بالتزود بالماء والغذاء والراحة ولا تحصل من الأهلين على أية اخبار عن المهدي وقواته تفيدهم في تدبير نجاح زحفهم.

من الناحية الأخرى نجد هذه المشاعر التي عمت أهل السودان واتخذت موقفاً قوياً موحداً في التعاطف والتعاون مع الثورة المهدية، نجد هذه المشاعر تصل قمتها في الاندماج الحقيقي والانصهار الكامل في القيادة العليا للثورة ذاتها، وانمحت تماماً النعرات العنصرية والقبلية وكانت القيادة في المستوى السياسي والعسكري تشكل على أساس المكانة الروحية والمؤهلات الشخصية، فخليفة المهدي الأول من غرب السودان وقائد القوات النجومي من شمال السودان وقائد فرقة الجهادية حمدان أبو عنجة من الجنوب والأمير في شرق السودان عثمان دقنه من قبائل البجه في الشرق وأمير الشمال من أهل بربر الشيخ محمد الخير، وهكذا وهكذا. . . . وجنود الثورة من شتى بقاع السودان من الجنوب ومن الغرب بجانب اخوانهم من الشمال والوسط والشرق.

ففي القرن التاسع عشر ووسط وهج نيران الثورة ولدت القومية السودانية الكاملة، وتوحدت المشاعر الوطنية، وامتلأت القلوب بالعزم الأكيد على التماسك والتلاحم وبذلك الجدار

القومي انعزلت القوات الأجنبية انعزالاً حسياً ومعنوياً، وتأكدت فيهم كلمات الدكتور شبيكة حين قال: «هذا الجيش في عدته ومعنوياته توغل في أرض عدوه. .» هكذا كانت شيكان مظهراً كامل الدلالة على الوحدة القومية.

ج ـ شيكان الدلالة العسكرية:

. . بتلك الدلالات في معنويات الناس وفي اكتمال التجمع القومي جرى التحضير لمسرح الحرب فيما صار يعرف بعد ذلك بواقعة شيكان. . كانت قوات الثورة المهدية تمتلك كل ارهاصات النصر والظفر، في حين كانت قوات نظام الحكم الأجنبي التركي المصري تحيطها كل علامات الهزيمة والاندحار.

فقوات المهدي كانت تستند في سنة ١٨٨٣م على تلك السلسلة الباهرة من الانتصارات الحربية المتلاحقة. . وتستند على تعاظم قواتها وتستند قبل ذلك على الروح القومي المؤيد والتفاف أهل السودان حول ثورتهم الوليدة والمنتصرة التي أيقظت في الشعب روحه المقاوم الأصيل وأزالت بقوة السلاح كابوس ليل بطش مؤلم مهين عاشوه تحت ظروف القهر والبطش سنيناً عجافاً فكان عندهم «زولين في تربة ولا ريال في طلبة[١]». أما الحكومة، فكانت على النقيض تقاسي مشاعر

(١) يشير ذلك المثل الشعبي المتداول ـ وقتها ـ لقسوة حكام الأتراك في جمع الاتاوات والضرائب التي فرضت دون أسس على كل السودانيين.

الغربة والهزائم المتلاحقة ومع ذلك كانت تأمل في الحاق الهزيمة بقوات المهدي، مستندة في ذلك على العامل الوحيد الذي يمتلكون (وهو التفوق في السلاح وأساليب الحرب العصرية). فهل كان ذلك العامل الذي استند عليه الغزو التركي المصري منذ فتح السودان في ١٨٢١م، هل كان لا يزال عاملاً قائماً في عشية موقعة شيكان، نوفمبر ١٨٨٣م؟!!

بمعنى آخر، ما هي الدلالة التي أكدتها تلك الحرب لانتقال السودانيين من مرحلة (التلقائية) والتخلف في عام ١٨٢١م حتى وصلوا شيكان في ١٨٨٣؟!!

حكومة القاهرة ما كانت تعترف للسودانيين بأي قدر حضاري، فهم دراويش في دراويش، لذلك اعتمدت على اعداد آلة حرب كبيرة في الكمية وفي النوع واطمأنت بعد ذلك إلى نصر كامل!!

فمن ناحية الكم أعدت جيشاً ضخماً بالنسبة لكل جيوشها في الغزوات السابقة وزودته بكميات المؤن ووسائل المواصلات والتمويل، فهم إثنا عشر ألف جندي، تحملهم آلاف الركائب جمال وبغال وحمير تناسب السير في مرحلة طويلة في أرض قاحلة.

ومن ناحية النوع زودتهم بأحدث سلاح في ذلك الوقت: مدافع كروب ذات العيار الكبير ومدافع فورد فلت الحديثة زيادة على المدافع الجبلية وأنواع البنادق الرمنتجون والنورثفورن إلى الأسلحة الصغيرة طبنجات، مسدسات وقنابل. كل ذلك

وضعته حكومة القاهرة تحت تصرف قيادة عسكرية على مستوى حضاري عصري في الاستراتيجية والتكتيك والخبرة الحربية الواسعة، فقد كانت القيادة العليا للحملة في أيدي مجموعة مختارة من خريجي الأكاديمية العسكرية من البريطانيين يقودهم الجنرال هكس باشا، من نوابغ العسكريين الانجليز ومن قادتهم العظام منذ ١٨٤٩م حين عمل في القيادة الهندية ثم الحبشة. . ويساعد هكس باشا الكولونيل فركوهار - رئيساً للأركان - ثم ثمانية عشر ضابطاً آخرين يشكلون هيئة أركانحرب، ثم يليهم كبار القادة الأتراك والمصريين من ذوي الدراسات العسكرية والخبرة الحربية في الكليات الانجليزية والفرنسية كعلاء الدين باشا واللواء حسين بك مظهر والميرلاي سليم بك عوني والميرلاي حسين بك فهمي. وصحب ذلك الإعداد الضخم حملة إعلامية في أوروبا معادية تماماً للاهتمام الكبير الذي حظيت به أنباء الثورة المهدية مما جذب انتباه الصحافة العالمية فأرسلت بمحرريها العسكريين ليصحبوا الحملة كما فعلت جريدتا التايمز والديلي ميل وغيرهما.

هذا من جانبهم، فما هي النقلة في التخطيط والاستفادة من الحداثة في النظم العسكرية التي كان السودانيون قد وصلوها في ذلك الوقت ليجابهوا بها التفوق في جانب الغزاة؟

منذ واقعة أبا في ١٨٨١م وحتى سقوط الأبيض في مايو ١٨٨٣م قاد المهدي معارك متتالية ضد قوات الحكومة كان النصر حليفه فيها على الدوام، فزيادة على الكسب المعنوي

والقومي الذي نتج عن ذلك فقد استولت قوات المهدي على كميات ضخمة من المدافع والبنادق والقنابل والذخيرة، زيادة على ذلك انضم إلى الثورة كل الجنود السودانيين الذين عملوا عساكر في حاميات الحكومة في مناطق غرب السودان وكانوا ذوي خبرة بالحرب الحديثة والسلاح الناري. . فأنشأ المهدي قيادة جديدة باسم (راية الجهادية) يقودها عسكري سابق هو حمدان أبو عنجة، وكان حمدان ملماً بفنون القتال وذا مقدرة فذة كقائد، فتولى القيادة الجديدة بغاية الحزم في التدريب الشاق والإعداد المستمر حتى صارت فرقته المسلحة تماماً بالمدافع الصاروخية والجبلية والبنادق الرمنتجون فرقة عسكرية حديثة، زيادة على ذلك فقد صارت كل قيادات جيوش المهدية تضم سريات كاملة من المدربين على السلاح الناري، ومن ناحية أخرى فقد كان الإعداد المعنوي للمقاتلين الثوار يشمل إلى جانب حلقات الدرس والمذاكرة في شروح فكر المهدية وأسانيده من القرآن والسنة وأقوال الصالحين وما يجب أن يكون عليه حال المؤمن من احتقار مظاهر هذه الحياة والرنو إلى الحياة الأخرى الأبدية وأن أمام كل جند المهدية الفوز بإحدى الحسنيين النصر أو الاستشهاد، زيادة على ذلك كله كانوا يعلّمون واجبات الجندي وسلوكه في القتال وكيفية التوفيق أثناء الحرب بين دور حملة السلاح الناري ودور حملة السلاح التقليدي.

فإذا كانت حروب المهدي الأولى تعتمد على أساليب الحرب العربية الإسلامية القديمة التي تعتمد «الجناحين الميمنة

والميسرة والقلب ثم المبارزة» وتحريك المعركة على حسب ضعف وقوة أمكنة العدو المقابلة، فإنهم في نوفمبر سنة ١٨٨٣م أضافوا مع السلاح الجديد استراتيجية الحرب الجديدة التي تناسب ذلك السلاح الفتاك، آية ذلك أن المهدي شكل مجلساً عالياً للحرب منذ سقوط الأبيض ظل في حالة انعقاد مستمر وهم يتدارسون ويعدون أنفسهم للّقاء الحاسم ضد حملة الحكومة التي صارت أخبارها تصلهم يومياً من قادتهم والأمراء: من الشيخ محمد الخير في بربر، ومن الخرطوم ومن سنار ومن النيل الأبيض وكانوا على أساس تمحيص المعلومات يضعون خططهم حتى تم وضع خطة عسكرية متكاملة كالآتي:

قيادة للمعركة واحدة تحت إمرة أمير الأمراء عبد الرحمن النجومي، يساعده كقائد مقدمة الأمير حمدان أبو عنجة.

ثم طابور مقدمة متقدم يسرع بالسفر لتتبع الحملة القادمة بهدفين: الهدف الأول اضعاف الحملة وانهاكها عن طريق اشتباكات بأسلوب حرب العصابات «اضرب واختفِ» والهدف الثاني ارسال تقارير يومية عن حالة الحملة وقواتها وطريق سيرها. وكونت قيادة الطابور من الأمير محمد عثمان أبو قرجة والقائد شيخ فضلو أحمد والقائد عبد الرحيم مساعد وعمر ود الياس على رأس ثلاثة آلاف جندي.

ثم قرر هذا المجلس الحربي العالي الاستفادة من كل العوامل المتوافرة إلى جانب قوات الثورة.. كالآتي:

أ ـ «العامل القومي»:

زكوه عن طريق ارسال المناشير والمناديب لكل السودانيين على طريق مرور الحملة يخطرونهم باخبارها طالبين منهم طمر الآبار ومنع أي امدادات غذاء أو ماء أو تعاون.

وفعل الجميع ذلك في الحال بل زادوا عليه احراق قراهم ذاتها حتى لا يستظل بسقفها جنود الغزاة.

ب ـ «العامل الطبيعي الجغرافي»:

استفادوا منه برسم خطة لسير الحملة في الفيافي والقفار في طريق شبه صحراوي طويل من الكوة في النيل الأبيض إلى ضواحي مدينة الأبيض في غرب السودان دون أن يمكنوا من رشفة ماء على الطريق، كذلك وعلى حسب تقارير طابورهم المتقدم اختاروا للمعركة المكان والزمان، كان المكان موقعاً استراتيجياً هو غابة شيكان غربي الأبيض في منطقة علوبة بل حددوا الزمان هو ضحى الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ والتزموا في التنفيذ التزاماً عجيباً وقوياً.

ج ـ «عامل التنظيم الاستراتيجي للمعركة»:

وضعت الخطة على أساس أن تتولى قوات حمدان أبي عنجة حصر قوات الحملة داخل غابة شيكان بضواحي مدينة الأبيض من الجناحين وذلك أثناء مرور الحملة داخل هذه الغابة في الطريق الوحيد الذي لا بد أن تسلكه إلى بركة أم

مصارين[1]، على أن تتولى القوات الرئيسية بقيادة النجومي الدخول من مقدمة الغابة ناحية البركة، على أن تسرع قوات طابور الأمير عثمان أبو قرجة التي تلاحق الحملة منذ لحقت بها ببلدة الرهد، تسرع فتقفل الطريق من خلف قوات الحملة بعد دخولها غابة شيكان، وبذلك تقع المعركة في كماشة حربية تتمكن قوات الثورة من إدارتها والتحكم التام في كرها وفرها.

. . . وهكذا لم تكن صدفة ولا دروشة دراويش وضع هذا التخطيط منذ بداية تحرك قوات هكس باشا من النيل الأبيض من مدينة الدويم أي منذ ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٣م واستمرت المتابعة والتنقيح تبع سير تلك القوات على مدى أكثر من شهرين وطوال طريق يمتد من الدويم إلى شات إلى علوبة حوالي ٢٧٠ ميلاً. . .

ووضعت الخطة النهائية للتنفيذ يوم الخميس الأول من نوفمبر سنة ١٨٨٣ حين وصلت قوات الحملة منهكة وخلفها طابور الأمير أبو قرجة، حين وصلت منطقة علوبة فأصدر الإمام المهدي انذاراً مكتوباً نهائياً إلى قوات الحملة، نسخ بالآلاف وألقي في طريقهم فكان حاسماً بطلب الاستسلام ويؤكد إمساكه بأزمة الموقف قال الانذار: «إلى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل، إنه لا يخفى لذي عقل أن الأمر بيد الله لا يشاركه في ذلك مدافع ولا بنادق ولا صواريخ ولا

(١) تعرف البركة في منطقة كازقيل بهذا الاسم الآن وهي قريبة من مدينة الأبيض.

عصمة لأحد إلا من عصمه الله تعالى.. فإذا فهمتم ذلك فاعلموا أن الله واحد فلا تغتروا بأسلحتكم ولا بجنودكم التي تريدون أن تقاتلوا بها جنود الله فإنه لا قوة لشيء دون الله..»
حتى يقول:

«تخرجوا إلينا مسلمين ومن سلم يسلم، وإن أبيتم إلا الجحود والاغترار بالمدافع والبارود فأنتم مقتولون..».

.. نعم فلم تكن صدفة.. ولا دروشة دراويش.

توالى تنفيذ الخطة المتكاملة منذ ذلك الخميس أول نوفمبر وخلال أيام الجمعة والسبت والأحد حتى ضحى الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣م حيث دارت المعركة تماماً في الزمان والمكان وطبقاً للخطة داخل غابة شيكان وبنفس تنظيم القيادة، فأمسكت الكماشة بالاثني عشر ألف جندي وركائبهم ومؤنهم وذخائرهم ومدافعهم وصواريخهم وقادتهم ذوي الخبرة والعلم العسكري الحديث، فأبيد كل ذلك إبادة تامة، ودخلت مادة الاستراتيجية الحربية في الأكاديميات العسكرية (خطة معركة شيكان) في السودان الأفريقي..

.. فهي ليست صدفة ولا دروشة الدراويش..

في ذكرى شيكان[1]

اليوم تحتفل كردفان بذكرى شيكان
فتحية إلى أبطال شيكان وشهدائها

> قــد ظــن هــكــس ـ مــن غــرور ـ أنــه لــن يــهــزمــا
> الأرض إن مــادت يــثــبــتــهــا ويــقــتــحــم الــســمــا
> كــم خــاب قــال الــعــلــج قــد لــقــي الــهــزيــمــة مــرغــمــا
> الله أكــبــر نــحــن جــنــد الــمــوت آســاد الــشــرى
> من نشيد شيكان نوفمبر ١٩٦٥[1].

في ذكرى شيكان الخامس من هذا الشهر (نوفمبر) تمر اثنان وثمانون عاماً على معركة النصر في شيكان «جهة علوبة» إلا أن الذكرى الثانية والثمانين لا تمر كالأخريات، إذ تجد أناساً يمدون يداً، ويقفون لحظات حول الغابة وحول المشهد

---

(١) نشر هذا المقال بصحيفة الرأي العام اليومية بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩٦٥م يوم الاحتفال القومي الأول بذكرى المعركة الخالدة، وكنت أنادي منذ عام ١٩٦٣م في كتاباتي بضرورة ادخال أيامنا التاريخية الكبرى في مناهجنا التربوية والتوجيهية.

(٢) نشرته مجلة كردفان وقد فاز بجائزتها الشعرية المرصودة لمناسبة ذكرى شيكان.

في مدينة الأبيض، وإليهم تهفو أفئدة ملايين السودانيين، يرتفعون بالوعي القومي فوق حجب الحزبية والطائفية، وإلى إحدى المنارات في تاريخ الوطن، منارة صنعت بالدم وبالبسالة، صنعها كل جند السودان، من كل قبائل السودان، بكل سحنات السودان. بكل لهجات السودان، تهفو الأفئدة إلى هذه المثابة، لندرك في هذه اللحظات التي تفرقنا فيها المذهبية الحزبية والطائفية «المعاني في الوحدة الوطنية التي اجتمعت عليها صفوفنا يوم شيكان فاستطاعت أن تخضع السلاح الناري المتفوق، والاحتراف العسكري، وهيئات الأركانحرب من الأكاديميات العسكرية بكل نياشينهم وتواريخهم في ميادين الحروب، استطاعت وحدة أبناء وطن أفريقي في القرن التاسع عشر أن تخضع تفوقهم المادي والأكاديمي إلى إرادة وتفوق السودانيين المعنوي، عندما تراصوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً وتعاهدوا على نيل إحدى الحسنيين (النصر أو الاستشهاد) فكان يوم شيكان يوماً باسلاً طويلاً، صنع بالبذل وبالفداء وبالدم ليستوي على مدار الزمن منارة تشع بالعزة واباء الضيم تشحذ هممنا جيلاً بعد جيل، تعلمنا أن النصر دائماً يمكن أن يتحقق حتى دون تفوق في السلاح أو العبقرية المحترفة، إذا اتحدت الصفوف وإذا سمت الأنفس، ولذلك فليس صدفة أن تكون ذكرى شيكان في أيام تتمثل فيها من جديد ذكرى تحرك سوداني باسل[1] لم يكن

(١) إشارة لاحتفالات أول ذكرى لثورة أكتوبر الخالدة.

الرجال فيه يتفوقون بالسلاح، إنما كانوا يتفوقون بوحدة الصف الوطني وسمو الهدف، فقاتلوا عزلاً بالحجارة والعصي في ٢١ اكتوبر، تماماً كما قاتل آباء وأجداد لهم بالعصي وبالرماح في وجه المدافع والصواريخ، فكان ثوار أكتوبر حلقة منطقية في سلسلة المقاومة السودانية جيلاً بعد جيل، كان ثوار أكتوبر أوفياء لأمانة الآباء والأجداد، أوفياء لتاريخ ومنارات... صنعت بالدم وبالبذل لتبقى شوامخ في تاريخنا تعلمنا دائماً معاني البذل، معاني الفداء، معاني وحدة الصف السوداني.. فأكد أكتوبر أن تاريخ الشعوب الحية الباسلة لا يضيع أبداً مهما تآمر على طمسه دهاقنة المتآمرين والمستعمرين وصفوف السذج المقلدين الذين حاولوا طمس كل بريق فعال في تاريخ السودان في كل ما كتبوه وألفوه.. فارتفع الشباب السوداني في أكتوبر فوق ما لقنته الكتب واندفعت صفوفهم بالأصالة والموروثات القومية يتنادون بمعاني العزة والشجاعة السودانية، فصمدوا مع جماهير شعبهم في وجه الرصاص والمدافع حتى حققوا النصر، فاعتلت الإرادة الوطنية فوق كل إرادة، تترجم في بيان عملي أن الشعب هو مصدر السلطات وفاءً لتراث بني الإنسان في أشرف جوانبه.. فكان بحق (هذا الشبل من ذاك الأسد) وكانت أكتوبر آخر حلقة في سلسلة المقاومة السودانية الباسلة للذل والعبودية على مر الأجيال. كانت أكتوبر هي إحدى لبنات شيكان، وكانت أكتوبر الخالدة تجسيداً لمعاني شيكان (شيكان النصر.. شيكان البسالة.. شيكان إباء الضيم).

فلنحيي بوهج أكتوبر الوضاء الذي لن ينطفىء[1]، ذكرى شيكان ودروس وحدة الصفوف السودانية ونبل الغرض التي تجسدها ذكرى شيكان ولنكن أوفياء لموروثاتنا القومية، نذود عنها كل خلط ذميم يحاول أن يجعل للهوى المذهبي السياسي نقطة سوداء تحجب الضياء القوي الملهم، ذلك الضياء الملهم الذي تشعه مناراتنا القومية (في كرري.. وفي شيكان.. في ام درمان.. في ذكرى أكتوبر.. في ذكرى عبد الفضيل الماظ..) لأن ضياءها يكسو بالفخر قطرنا كله، ولأن دروسها الموروثة هي التي بقيت تجري مجرى الدماء في عروقنا جميعاً تحفزنا للهمة ولإباء الضيم كلما تجمعت المكاره أو حاق بالوطن الخطر.

وإنني أحيي متحف شيكان في يوم شيكان[2]، وأذكر أن هذا المتحف سيزيد اعتزازنا القومي به حينما نذكر أن الرجال

---

(١) الإشارة أيضاً إلى مناخ تلكم الأيام حيث كان صدى الذكرى الأولى لثورة أكتوبر الشعبية الكبرى يسيطر على المشاعر.

(٢) جاء في مقال صباح ذلك اليوم في الجريدة السودانية الإقليمية الهامة جريدة كردفان في تلك المناسبة ما نصه:

«مرحباً بيوم النصر، يوم شيكان.. فلم تكن شيكان نقطة تحول في تاريخ السودان وحده، وإنما كانت انتفاضة الحرية في افريقيا كلها. فمنذ قرون لم ينتصر الأفريقيون انتصارهم في شيكان ومنذ قرون لم ينتصر المسلمون انتصارهم في شيكان ومن هنا كانت عظمة ذلك اليوم...

إن الثائر الأول الإمام استطاع بقيادته الحكيمة أن يجمع السودانيين حوله وبتلك الوحدة النظيفة المخلصة استطاعت قلة عزلاء أن تفعل المعجزات.. الخ.. الخ»
يمكن الرجوع لتلك الكلمة القوية في العدد رقم ١٤٣٦ من مجلة كردفان الصادرة في يوم الجمعة ١٥/١١/١٩٦٥م في مناسبة ذكرى شيكان.

القائمين عليه بدأوا في ظل الحكم العسكري وفي أيامه الأخيرة حين خيل إليه أنه أخضع كل القوى المناوئة وبدأ يعربد في غير اكتراث وكانوا في خلطهم العجيب يعتبرون أي حديث عن الثورات وعن الفداء وعن المهدية بالذات إنما مو موجه من طرف خفي للنيل منهم، وتشجيعاً لخصومهم، فكانت لفتة قومية شجاعة في مثل تلك الظروف أن نسمع أن رجال الأبيض يتحدون كل هذا الاتحاد ويلتفون بتراثهم القومي ويبدأون عملاً جاداً لبناء متحف يخلد ذكرى شيكان، ويمكن الأجيال الجديدة من بني هذا الوطن على أن يروا بأعينهم بعض أمجاد صنعها لهم آباء وأجداد فينفعلون ويرتبطون أقوى رباط بهذا الثرى. إننا نحيي في عرفان وطني المعنى القومي النبيل لهذا العمل، وسيحفز ذلك الكثيرين منا على المزيد من الوفاء لتراثنا ومناراتنا القومية وليوفق الله العاملين بتجرد من أجل هذا الوطن وشعبه، ولتحيا ذكرى شيكان في يوم شيكان الخالد.

الفكر النظري[1]
والثورة المهدية

إن أية نظرية لا يمكن على تعبير «باريتو» أن تكون مقبولة إلا لمدة معينة.. فما يمكن أن يكون صحيحاً اليوم يجب أن يترك غداً إذا ما وجدت نظرية أكثر اقتراباً منه إلى الواقع.. يزيد من ضرورة ذلك أنه نظراً لعدم قدرة أي مفكر على تصور الواقع كله.. فإن كل نظرية لا تحتوي إلا زاوية من الواقع وتقصر على أن تغطي كل الزوايا.. والواقع نفسه الذي تصدر عنه النظريات في تطور مستمر.. بحيث لا تنطبق رؤى اليوم.. إلا على جزئيات رؤى الغد.

«إن قصة الإنسانية منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض ليست في جوهرها إلا صراعاً بين الخير والشر.. معان سامية وأهداف نبيلة ضحى في سبيلها ملايين البشر، أمام أولئك الذين خضبوا التاريخ البشري بأناملهم وأفعالهم.. ومع ذلك ورغم كل محن الإنسانية، فإن النصر كان دائماً يعقد لواؤه لأصحاب الخير.. الخ»[2].

إذا بدأنا بتساؤلات مؤرخين أجانب أمثال هولت[3] عن العوامل المباشرة التي سطرت في مجرى الأحداث الدولية فجر

---

(١) نشر هذا البحث بمجلة الخرطوم في عددها بتاريخ أول مارس سنة ١٩٧٠م.

(٢) الاقتصاد السياسي لروبين، الناشر ماكميلان، لندن ١٩٤٩م.

(٣) Holt: A Modern History of the Sudan.



شباب القادة في الثورة المهدية

محمود ود أحمد: برز قائداً وهو دون الثلاثين من العمر وقاتل ببسالة أول معركة رئيسية ضد قوات كتشنر الغازية في معركة النجيلة دامت أربعة أيام حتى جرح وأسر.

الثاني عشر من أغسطس سنة ١٨٨١م كبداية التفجر الثوري المسلح للسودانيين على نظام الحكم التركي المصري الذي استطاع أن يغزو السودان ويفتحه على عهد محمد علي باشا وعلى يدي ابنيه «إسماعيل وإبراهيم» وصهره الدفتردار منذ سنة ١٨٢١م، إذا بدأنا بتساؤلاته عن الدوافع المباشرة التي جعلت من ذلك اليوم بالذات بداية لانطلاق الشرارة والتي حولت سودان قلب أفريقيا السوداء إلى لهيب مشتعل لمدة سنين أربع كاملات، تعاقبت خلالها أحداث اصطرعت شتى العوامل والتفاعلات على النطاق الإقليمي والدولي ولم يحسمها جميعاً إلا الإصرار العنيد الذي تميز به السودانيون كلما حاق بوطنهم الخطر الخارجي وكلما استفزت مشاعرهم وحرماتهم بواسطة دخلاء أو غزاة من الأجانب(١). . لماذا كان ذلك الفجر ١٢ أغسطس من يوم الجمعة ١٦ رمضان ١٢٩٨هـ هو يوم التفجر العاتي الذي لم يهدأ منذ ذلك التاريخ حتى قلب الأوضاع رأساً على عقب، وأمسك بأحداث سير التاريخ في تلك المنطقة من العالم لمدة سبعة عشر عاماً كاملة. . لماذا كان ذلك اليوم بالذات، كما تساءل هولت؟

هل لأن طاقة السودانيين في تحمل القهر والمظالم من نظام الإدارة المصري التركي المتعفن المتغطرس قد وصل تلك

(١) تنظر هنا دراستنا «خصائص السودانيين عند التهديد الخارجي» صحيفة الأيام عدد رقم ٥٠٠٢ بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٦٧م وكذلك مقالنا في صحيفة الصحافة بتاريخ ١١ يناير ١٩٦٤م حول تاريخنا.

اللحظات إلى مداه عبر تلك الستين عاماً العجاف منذ حلت النكبة وحط العبء الثقيل بكلكله على كاهل أهل السودان؟

أم هل ساعدت ظروف الحال داخل مصر نفسها في ضعضعة هيبة حكومة الاحتلال فانتهز السودانيون الفرصة وأشعلوا ثورتهم. . وماذا عن الزعيم المنتظر، كما يتساءل هولت؟

فهل هو كما يصفه الجيل الجديد من أبناء السودان بوصفه الأب الحقيقي لاستقلال وطنهم؟ أم هو زعيم إسلامي مجدد[١]؟ أم هو المهدي المنتظر الذي تبشر به المعتقدات الإسلامية[٢] الذي يأتي آخر الزمن يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً؟

. . . إنَّ هولت في تساؤلاته شبه الساذجة يصل في نهاية الأمر لمحاولة الوصول إلى إجابات مستمدة من استقراءات تلك الفترة التاريخية بكل مكوناتها ومقوماتها داخل مسرح الأحداث نفسه وفي الصورة المحيطة به، فلا يجد إلا جملة واحدة تطمئن لها نفسه في نهاية المطاف وهي عبارة «الظروف المحلية» أو كما قال حرفياً: in local conditions.

وتلك إجابة، الوصول إليها كان يجب أن يكون بأقل

(١) صفحة ٧٩ هولت A Modern History of the Sudan.

(٢) مع ملاحظة أن ظهور المهدي ليس من المعتقدات الإسلامية في مصادرها الأساسية كما يعتقد هولت خاطئاً.

جهدٍ ممكن، فتلك هي المركبة الأساسية، وأي تحرك تاريخي، العامل الموضوعي الحاسم، نضوج عوامل التفجر وتبلورها في حالة من الاضطرام الشامل، وإدراك الجميع بأن شيئاً هائلاً لا بد أن يحدث، واتجاه الأبصار في حسم بكلياتها لاستقبال الحدث الضخم الذي يصبح المخرج الوحيد أمام كل الجماهير: المخرج الذي لا مخرج سواه.. وأبعد من تساؤلات «هولت» تظل خلفية الأحداث في السودان في سنة ١٨٨١م سحباً داكنة أوصلتها تصاعدات أعمال القهر والابتزاز من قبل الإدارة المعقدة البالية لنظام الحكم التركي المصري إلى مدى لا يطاق، بأكثر كثيراً مما تعود عليه وبلاه أهل السودان منذ القرون حين أصبح تقليداً مستمراً توقع الغزو من الشمال أو كما لخصه بحق الدكتور شبيكة حين قال:

«إنّ داء الإدارة التركية المتفشي في كل أجزاء الامبراطورية العثمانية وجد طريقه إلى السودان، حيث شاعت الرشوة والاختلاس وزاد عبء الضرائب زيادة لم يعد يحتملها كاهل الأهلين واستخدمت طرق تدل على الظلم والجور مما لطخ سمعة الإدارة.. الخ.. الخ» حتى قال: «وينتشر الباشبزق ـ جنود الحكومة التركية ـ ينتشرون في البوادي والقرى يحملون السياط مذكرين الأهالي بسلطة الميري ونفوذ الحكومة بطريقة الجلد والتخويف والرشوة.. فضج الأهالي وضجروا وجأروا بالشكوى حتى ضربوا المثل السوداني المعروف (زولين في تربه ولا ريال في طلبه)».. ذلك كله رغم أن الغزو من الشمال أصبح تقليداً منذ القرون كما يعبر

الدكتور شبيكة قبل ذلك في صفحة ١٣ حين قال[١]:

«انه ما من ملك أو سلطان حكم مصر إلا وفكر في امتداد ملكه جنوباً، فالفراعنة بدأوا بالأراضي الجنوبية من وقت مبكر منذ الأسر الأولى وما فترت ولا انقطعت غزواتهم إلا عندما تتهدد مصر نفسها موجات غزاة، وحتى غزاة مصر نفسها يواصلون بعد امتلاكها محاولات التوسع في أرض السودان فعلت ذلك عهود الفرس واليونان والرومان والأتراك حتى عهد محمد علي باشا..» ويعبر عن هذا التقليد أيضاً الكتّاب المصريون أنفسهم أمثال: محمد فؤاد شكري في كتابه (مصر والسيادة على السودان) طبعة سنة ١٩٤٦م وكذلك في كتابه (الحكم المصري في السودان) طبعة سنة ١٩٤٧م، كذلك أمثال إبراهيم فوزي وكل من كتب منهم عن السودان وعلاقته بمصر بما فيهم الرافعي[٢]. كان السودان ـ إذن ـ قد وصل على أيدي مستعمريه في العهد التركي المصري درجة الانهيار التام في

(١) الأستاذ الدكتور مكي شبيكة في كتابه «السودان في قرن».

(٢) عبد الرحمن الرافعي كتابه: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ـ طبعة سنة ١٩٤٨م وهو يحاول أن يخفي رغبة السيادة وتقليدها الطويل فيغلف حديثه بتعابير أخف فيقول: «توالت الأحداث وتفاقمت في السودان وأهمها تفاقم ثورة المهدي (كذا!!) فلقد تصدعت هيبة الحكومة المصرية كذا!! وأدى كل ذلك إلى اغراء المهدي واستخفافه بقوتها (كذا!!)» إلى أن بلغ الرافعي بأسلوبه في تفسير ثورة السودان حد القول بأن السودانيين لم ينتصروا إلا لأن بريطانيا تآمرت على مصر فسحبت الحاكم المصري «القوي» عبد القادر باشا حلمي وبذلك خلا الجو لأهل السودان فانتصروا ـ كذا ـ يقول بألفاظه: «كان استدعاؤه من أهم الأسباب لهزيمة الجيش المصري أمام جموع المهدي»!!؟ ـ هكذا!!

المعنويات وفي المقدرات، وسيطرت غيوم داكنات على سماء القطر تبرق بالخطر وترعد بالرهبة المتوجسة، تتطلع من خلال ذلك الجو الكئيب المتوجس، تتطلع الأنظار تتفحص وجوه الرجال تبحث عن رجل الساعة المنتظر.

تفجر الثورة على يدي المهدي:

وانتصب الحلم حقيقة، وتفجرت نفس الأرض التي جبلت وماجت بنذر الخطر طويلاً عن رجل الساعة، وكان كما يعلمنا تاريخ التطورات الكبرى منذ استقرت جماعات البشر وتكوّن مجتمع الحضر، كان بالضبط على مستوى المهمة الخطيرة نموذجاً متكاملاً (للشيء المبهم والحتمي معاً) الذي اشرأبت الأعناق في انتظار بروزه.

كان مجتمع سودان ذلك الجزء من القرن التاسع عشر قد تحددت أُطره المعنوية والروحية وسماته الاجتماعية والسلوكية وأنماط حياته المعيشية (الاقتصادية) في هيكل بسيط واضح يشكل السمات القومية لشعب السودان أصدق نموذج لها: الحياة كما كانت تمارس في أقاليم الوسط (أرض الجزيرة والبطانة، وأرض ما بين النيلين ونهر النيل حتى دنقلا).

كانت الحياة تدور في قالب عام دائرة الارتكاز في قلبه ـ الناحية الروحية[1] ـ وكان المشايخ والعلماء والصالحون

---

(١) صورت أدوات التعبير الشعبي المتاحة في تلك الفترة في أبلغ المعاني تلك الحال التي كان القطر قد وصلها كما نجد في نسختي كتاب الطبقات وفي =

والفقهاء ودور الذكر والعلم: الخلاوي والمساجد بل والقباب والأضرحة، ترمز عند العامة الغالبة لهذا المرتكز الأساسي (العامل الديني) وتتفرع أوجه الحياة الأخرى عن هذا المرتكز وتلتقي كذلك في نهاية الأمر بشكل أو بآخر حوله الزراعة والتجارة وتبادل المصالح والصناعات وعلاقات التعامل الناشئة عنها جميعاً، ثم علاقات الشعب والأفراد بالسلطة القائمة كخاضعين لأعرافها وأوامرها ودافعين للضرائب لها ومقاسين من صنوف ما اشتهرت به من لؤم فاسد[١]. كل ذلك يرتبط في ذهن إنسان سودان تلك الحقبة بمركز التأثير الارتكازي ـ شيخ طريقته، أو عالم الحلقة في المسيد أوالمسجد أو خلفاء وأحفاد الأئمة حول القباب وبين دور الذكر ـ وكان من هناك يتوقع التفسير «المعين» على حل كل ما يلقاه في ضروب حياته وكما

= محطوط كاتب الشونة، كما نجد كذلك في المدائح ففي قصيدة حاج العاقب الشهيرة في كتاب شعراء المدائح بالسودان للأستاذ قرشي تقول:

يا مجير أجرنا.... من زمانا ذل فقيرنا
صغيرهم يحكم كبيرنا وكل يوم ناساً تغيرنا
فيا رب: إما ديرهم وإما ديرنا وإما جيب المهدي أميرنا

واستجاب له الله فأدارهم هم وجاء بالمهدي رمز الانعتاق والعدل..

(١) في مخطوطة كاتب الشونة الشيخ أحمد بن الحاج علي نجد تصويراً تلميحياً بأسلوبه الرمزي المغلف بالألم يتحدث في صفحة ٧٢ عن أول جاسوس أفندي يظهر ببلادنا فظهر معه نجم مذنب وقحط...

وفي صفحة ٩٨ قصيدته بعنوان «وأظلمت أرضنا حقاً» وقصيدته:

ديارنا بعد أن كانت معمرة غدت مسكن الطاغينا والظلما

يلاحظ أن كاتب الشونة والذي يشكل مخطوطه المشار إليه أهم مصدر أصلي في تاريخ السودان، كان يكتب في ظل الحكم التركي المصري.



نظرة في الجانب الفكري للثورة المهدية
معركة شيكان

كان من هناك يتوقع الفرج لهمومه. وتشكلت بذلك سمات المنقذ المنتظر من خلال رؤى ومكونات التصور الشعبي السائد في تلك المرحلة الاجتماعية التاريخية لمجتمع زراعي قبلي وشبه رعوي، كما تشكلت ملامح أي دعوة أو فلسفة يراد لها أن تعمل في ذلك المناخ تماماً كما عبر عن ذلك في نفس ذلك القرن الفيسلوف الفرنسي برودون[1] «١٨٠٩ ـ ١٨٦٥» حين قال في بحثه الشهير «في الفكر الثوري» ما معناه:

اختلفت الآراء ونظريات المؤرخين والمفكرين والكتّاب في تعليل أسباب التطور البشري، منهم من يفسره بالعامل الاقتصادي ومنهم من يعزوه للعامل السياسي ومنهم من ينسبه للعامل الاجتماعي، ولكن الحقيقة تقول إن التطور الذي مر بالمجتمع الإنساني لم يكن إلا نتيجة تفاعل وترابط هذه العوامل جميعاً مع العوامل الروحية والظروف الطبيعية... الخ، ذلك أن التطور الحضاري للإنسان جاء نتيجة تفاعل مستمر للعناصر المادية والعناصر المعنوية، لذلك فإنه لتحريك الكوامن في أي مجتمع بهدف التحرك والانتفاض لا بد إلى جانب العوامل الأخرى من عقيدة أو فلسفة يعتنقها أفراد هذا المجتمع تضع الحدود والأطر وتحدد الهدف النهائي باعتبارها

---

(١) جوزيف برودون، على أن برودون نفسه كان على كراهية للكنيسة ورجال الدين وفي أُخريات حياته أبرز مذهبه في تفسير الجدلية الهيجيلية في كتابه «فلسفة الفقر» يتبنى فيه نوعاً من الديالكتيكية لم يعجب كثيراً المدرسة الجدلية «الأشعبية» أو التلمودية، فردوا عليه بكتاب مضاد أسموه «فقر الفلسفة»..

الدافع المحرك ومحور التخطيط وأداة كشف عقبات الطريق وتذليلها. . الخ. يقول: ولن تحقق أيَّ أمل تقدمي فلسفة لا تتفق وإرادة الناس، وعلى العكس إذا كانت الفلسفة نابعة من ظروف المجتمع، ملائمة لطبيعته واحتياجاته فإنها تعتبر أقصر طريق إلى التطور التقدمي للمجتمع بما يحقق رفاهية الأفراد، ولا يجب أن يكون هناك تناقض بين فلسفة المجتمع ومعتقداته أو تكون ضد تراثه القديم إذ لا بد أن يقتنع أفراد المجتمع بتلك الفلسفة اقتناعاً كاملاً يكفل لهم الاندفاع بحماس وبروح معنوية عالية لتحقيق الأهداف.

أقول: تشكلت ملامح المنقذ المنتظر كما تشكلت ملامح الدعوة التي حبلت بأماراتها آفاق القطر، ولم يبق إلا بروز الرجل بالمواصفات التي تفرضها ظروف الحقبة وطبيعة القطر ومرحلة شعبه التاريخية، ذلك الذي انتظم الصمت الطويل المتوجس بقاع القطر في ترقب ظهوره. وتفجرت الأرض عن الرجل: كان المكان جزيرة صغيرة في وسط السودان، على النيل الأبيض هي «أبا»، كان الزمان فجر الجمعة السادس عشر من رمضان ١٢٩٨هـ الثاني عشر من أغسطس سنة ١٨٨١م، وكانت تلك بداية شرارة الثورة المهدية، أول تفجر ثوري شعبي منتظم يمتشق السلاح بهدف تحرير الأرض أولاً وإسقاط كل ذلك النطام، ثم إقامة نظام في الحكم والإدارة وعلاقات الجماعة مختلف تماماً في وسائله وغاياته ومصادر تشريعاته.

خرج الزعيم على مستوى المهمة الخطيرة مكتملة مواصفاته، فهو العالم والفقيه وطالب المعرفة الذي شهدته وهو

يافع خلاوي قرية كرري والخرطوم، وعرفته وهو فتى خلاوي الغبش الشهيرة في بربر، واحتضنته في اكبار دور ومساجد سادة الطريقة السمانية: أم مرحى، وعند الحلاويين الشيخ قرشي، عرفوه حافظاً مجداً للقرآن الكريم وعالماً متفقهاً بعلوم الدين واللغة وشيخاً مأذوناً ومعدوداً بين كبار مشايخ الطريق السماني، كما عرفوه رجلاً يأخذ نفسه بالشدة والالتزام العنيد بالحزم والجدّة، وعرفوه خبيراً بالوطن وشعبه إذ ثابر على التطواف وتفقد مناطقه ومدرانه منذ جزيرة لبب في الشمال إلى الفاشاشوية وكوستي في الجنوب، ومنذ أرض الحلاويين في الشرق إلى تقلى وجبال تالودي في الغرب، وكوّن المعارف، وعقد الإخاءات والصداقات ووثق عرى التواصل بين الأعيان والمشايخ الشهيرين في كل بقاع القطر. وعندما استقر في جزيرة (أبا) الصغيرة، ليبدأ المرحلة الجديدة التي أعد لها نفسه عبر سنين طويلة من الكد والتطواف، فإن كل المنطقة اكتسبت من مكانة شيخها الوقور شهرة كبيرة، واتجهت الأنظار وبدأت قوافل الوافدين لا تنقطع عن الجزيرة التي عرفت لياليها بذات اللهب الذي لا يموت، إشارة إلى حلقات الذكر وتدارس القرآن الكريم وتلاوته التي لا تنقطع طيلة الليالي، وكانت كل تلك ارهاصات حسمت بعد التمهيد والاتصال السري بالخاصة، حسمت بالاعلان الرسمي المسلح، حين دارت أول معركة في ذلك الفجر بين الثوار وقوات الحكومة التركية التي أرسلت لاخراس نغمة «الثورة» التي بدأها شيخ أبا، محمد أحمد بن عبد الله، ولكن النصر كان إلى جانب الثائر الذي

أعلن في نفس ذلك اليوم لكل المشايخ والعلماء وجماهير الشعب أنه مهدي الله، وأنه يتولى مسؤولية الجهر بالعداء للحكومة التركية، وأنه يتخذ الحرب والقتال أسلوباً لإسقاط ذلك النظام، ليؤسس على أنقاضه دولة السودان الإسلامية، التي تبدل باطل الترك إلى حال من العدالة وتمكن للكرامة التي امتهنت وللشرف الذي أهين، تثأر لنفسها وتؤكد أن شعلة العزة لم تخبو، وأن أرض السودان معطاء دائماً تخرج عند الاحن الأبطال، وأنه بذلك يضع الخاصة والعامة أمام مسؤولياتهم المحددة، فقد انفتح باب الجهاد على مصراعيه ولم يعد هناك مكان لأضعف الإيمان، الكل مدعو للقتال والكل مدعو للثورة واستلام السلطة، من يستطع يثر في منطقته مع كل قبيلة، ومن لا يستطيع ذلك فعليه اللحاق بجموع الثوار في دار الهجرة، في مناطق الجبال الحصينة في غرب السودان. ونقرأ للزعيم الثائر من أحد منشوراته التي يبعث بها إلى كل القبائل ومشائخ وزعماء البلاد، نقرأ منشور البيان ـ في الفقرة الخاصة بالدعوة للهجرة واللحاق به ـ الآتي[١]:

«أيها الأحباب:

«إن هذا الزمان معلوم الحال، والطباع ترق بعضها بعضاً، ولا مخلص عنها إلا بالهجرة وفي ذلك ما لا يخفى كتاباً وسنة.. الخ».

---

(١) تنظر مناشير المهدي، إصدار دار الوثائق المركزية.

وينزل المهدي منشوراً آخر يدعو فيه للتجمع لإقامة المجتمع الجديد[١] فيقول:

«ما كاتبناكم بالاجتماع معنا، ومعلوم، ومعلوم أنه لا أمان إلا في الكتاب والسنة، كما ورد المؤمن لا بغية له إلا الدين، فمن كان مهتماً بإيمانه، شفيقاً على أمر دينه أجاب الدعوة مجتمعاً معنا..».

لقد أعلنت الثورة رسمياً، بعد فترة تمهيد سري، تميزت أولاً بالكتمان والاعداد المتقن الحذر وحسن اختيار وإعداد القادة ومجموعة المنفذين الأول لخطط الثورة إعداداً معنوياً ومادياً، كما تميزت بتحسس الظروف المحيطة لاختيار أنسب زمان وأنسب مكان لبداية العمل العلني وتطوراته، فجرت عمليات اتصالات وجس نبض ثم مكاتبات ومكاشفات مع أغلب مشاهير السودانيين علماء وزعماء وموظفي دولة وغيرهم، كما طاف المهدي بصحبة نائبه الخليفة عبد الله في مناطق الحلاويين أولاً، ثم في مناطق غرب السودان حيث استقر الرأي نهائياً على اختيار مناطق تقلى ـ بلاد «الملك آدم أم دبالو» ـ كدار للهجرة والتجمع بعيداً عن قوات الحكومة، حتى يمكن التدريب والاعداد وتعميق مفاهيم الثورة، ثم يبدأ الزحف المنظم لقتال حاميات الحكومة وقواتها حتى النصر.

... ولقد تم تنفيذ ذلك كله في مدى أربع سنين فقط إذ

(١) نشير هنا لكتابنا مهر الدم، الباب الثالث باسم الجانب الفكري للثورة المهدية وهي أول دراسة ـ في مدى علمنا ـ لاستخلاص فكر الثورة المهدية من واقع مواثيقها.

بدات الثورة بمعركة أبا في أغسطس سن ١٨٨١م وبدأت الهجرة غرباً، وتم اكتمال تجمعات كل من استطاع من قبائل السودان، فانتصروا في المعركة الثانية وكانت ضد قوات الحكومة بقيادة راشد أيمن في ديسمبر سنة ١٨٨١م، ثم انتصروا في الثالثة الكبرى في مايو سنة ١٨٨٢م وأعقبتها معركة فتح الأبيض حتى استسلمت في يوليو سنة ١٨٨٢م، ثم معركة شيكان الشهيرة في نوفمبر سنة ١٨٨٣م وأعقبها سقوط بارا وتسليم دارفور وسقوط كل غرب السودان في أيدي قوات الثورة، وبدأت مرحلة الزحف الطويل من الأبيض لفتح العاصمة الخرطوم ففتحت في يناير سنة ١٨٨٥م.

وانتهى في ١٨٨٥م كل عهد نظام الحكم التركي المصري بهزائم عسكرية ساحقة، وأعلن بذلك استقلال السودان بوسيلة الحرب الشعبية الشاملة، ولقد استمر السودان دولة حرة ذات سيادة حتى غزته من جديد قوات انجليزية ومصرية كبيرة في سبتمبر سنة ١٨٩٨م، أي استمرت الدولة السودانية الكاملة السيادة ثلاثة عشر عاماً كاملة، فأتيح بذلك مجال عملي لتطبيق كل نظرية الثورة في الإعداد والتجمع والحرب التحريرية، ثم إقامة جهاز إداري وهيكل للدولة وللقوات المحاربة ولفلسفة ونظم الحكم. فما هي السمات التي اتسم بها بعد التطبيق العملي؟ وما هي المصادر التي يمكن أن نستمد منها أسس المكونات النظرية لهيكل الفكرة النظرية التي انتهجتها الثورة في هدم نظام متعفن بالٍ للحكم وإقامة نظام فتي جديد على أنقاضه؟ ذلك ما سوف نتلمسه في البحث التالي.

الفكر النظري في الثورة المهدية
من وثائق الحكم الذاتي وتقرير المصير

نظرة في

الجانب الفكري للثورة المهدية[1]

هل كان للثورة المهدية منهج فكري وأهداف لمجتمع جديد تريده؟

إننا سنجد الجواب بأكمله من المصادر الثلاث الرئيسية التي شكلت تكامل الجانب الفكري الواضح للثورة المهدية وهذه المصادر الثلاث هي:

أولاً: المناشير.
ثانياً: السلوك العملي أثناء حرب التحرير.
ثالثاً: هيكل الدولة ونظمها بعد الاستقلال.

أولاً ـ المنشورات:

من الواقع الحرفي للمنشورات التي كتبها أو أملاها (المهدي) والتي كما ذكرت قد تولى قسم المحفوظات[2] بوزارة الداخلية إعادة تصويرها وإصدارها في ثوب جديد نجد

---

(١) هذا البحث مبني على الباب الثالث من كتاب «مهر الدم تاريخ المقاومة السودانية» والذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٣م.

(٢) وقسم المحفوظات المذكور تطور الآن إلى دار الوثائق المركزية.

الجواب حاسماً (ان نعم وبدون أدنى شك) كان للثورة أهدافها واضحة مدروسة.

ولنذكر دائماً أن هذه المنشورات التي يضمها سجلان ضخمان إنما هي كتاب الثورة الكبير، للمنافحة الفكرية عن الثورة بدحض حجج الأعداء، وإجلاء حقيقة الثورة وما تريد، وهي كذلك البيان التفصيلي لمظاهر السلوك المطلوب توفره في الثوار المقاتلين، بالنهي الشديد المستمر عما لا يستحب والتبصير الدائم بالأخلاق الإسلامية والتقاليد السودانية الأصيلة بالنسبة لهم كمقاتلة في الميدان، وكأناس في حياتهم العادية ويعني ذلك ضرورة هدم المكتسبات من كل أنواع السلوك التي سادت المجتمع السوداني نتيجة للظروف القاسية التي فرضها حكم الترك في السودان، كما تبين الفلسفة الصوفية في أن السلوك السوي إنما يتأتى بفهم الحياة على أنها مجرد وسيلة للحياة الأخلد الباقية، وهكذا فلا مجال لتنافر أو تناحر أو جري وراء الملذات، ولا فرق بين مواطن ومواطن، كلهم مجندون جنباً إلى جنب من أجل إعلاء كلمة الحق، هذا إلى جانب زوايا كثيرة أخرى تحويها موضوعات هذه المنشورات تشكل في مجموعها بسطاً واضحاً لماهية الثورة وما تريد، كما تشكل منهج السلوك للفرد بالطريقة الجديدة المشبعة بالمثل والقيم الجديدة التي تسير جنباً إلى جنب مع النضال المسلح ليتم التكامل لشخصية المواطن الجديد وليشكلوا جميعاً في النهاية نوع المجتمع الجديد المرتقب، فالمنهج الإسلامي لمجتمع مسلم متحل بكل صفات المسلم هو النهج الفلسفي

للثورة وهو هدم تام لمجتمع الحكومة التركية القائم على أساس (استغلال الفرد السوداني) حتى النهاية من أجل اشباع رغبات الأسرة الخديوية في مصر وعملائها في السودان مع اتخاذ أحط الوسائل لهذا الأمر الذي قاد لانهيار في المعنويات، واضطراب للقيم ثم يأس مظلم استدعى ضرورة التغيير العنيف السريع الذي قاده (المهدي) في ثورة كبرى تزيل تعفن الترك ومكتسباتهم المهينة وتبني في نفس الوقت القيم والمثل التي تعوّد شعبنا على اعزازها وتقديسها. ومن هنا كان التجاوب الكامل بين القائد وشعبه لدرجة الفداء المعجز الباسل بالدماء دائماً وحتى تحقق النصر. هذا بالطبع إلى جانب الشعور الوطني الذي تجمع حول القائد وهو يذود عن الحمى يحرر الوطن من مغتصبيه المستعمرين الأجانب[1]...

ثانياً ـ السلوك العملي أثناء حروب الثورة منذ (أبا) وحتى سقوط الخرطوم:

وهذه ننظر إليها من ناحيتين (الناحية الدينية الاجتماعية) ناحية تربية الفرد المقاتل على الأسس الإسلامية النظيفة وإعادة الثقة إليه بنفسه كسوداني مسلم متخلياً بذلك عن المكتسبات السلوكية السيئة تحت نير ظلم الترك وعبثهم، والناحية الثانية (التنظيم) للجيوش ولهيكل الإدارة لكل هذه الحشود، وفي الناحيتين كان المنهج واضحاً، فهو المنهج الإسلامي الصريح.

---

(١) ينظر للمزيد من إيراد نصوص المنشورات مع تفسيرها كتابنا «مهر الدم» طبعة ١٩٦٣م أو طبعة سنة ١٩٦٥م صفحة ١٠١ في كليهما...

والتربية للفرد كانت (المنشورات والأوراد والراتب) تبسط الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وتسوق العبر على مر التاريخ كما كان المهدي نفسه لا يتخلى يوماً واحداً طيلة سني الجهاد عن الدرس المنظم لكل الحشود وتفقيههم في أمر دينهم، حتى والعدو أحياناً محيطاً بهم، لا يتخلى المهدي عن الدرس حتى شغفوا جميعهم، وارتفعت المعنويات وأقبلوا يدرسون بنهم شديد ويتفهمون، كما كان الأمراء والعلماء في كل محل وصلته الثورة يفعلون هذا بأمر المهدي.

كما كان (المهدي) بنفسه قدوة كاملة لمواطنيه، فهم في ذروة النصر يرونه دائماً بينهم الرجل البسيط، المحب لمواطنيه، الذي يرفع يديه إلى ربه داعياً:

«.. اللّهم، وبحق ممشائي هذا إليك، لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي...».

وحتى الأعداء، لم يجرؤوا لحظة على خدش (المثل الأعلى) للخلق والسلوك دون تعمل أو رياء الذي كانه (المهدي) لأبناء أمته، فقد روى شقير في صفحة ٢٣٥ ما نصه الحرفي:

«.. وفي أثناء سير المهدي إلى الرهد، كان يمشي على رجليه مراعاة لحال الضعفاء من أنصاره، الذين ليس لهم دواب، حتى إنه حفي وتورمت رجلاه..» الخ.

ذلك وهو القائد المنتصر الذي كان قد خرج لتوه من معركة شيكان مرفوعة اعلام النصر أمام حشوده بعد أن سحقت جيوش الأعداء سحقاً وغنمت منهم الغنائم الهائلة الضخمة. . .

كان الرجل السوداني، يرى كل ذلك أمامه من مواطنه وقائده العظيم فيرى في كل ذلك تعبيراً عن قيم أصيلة وعميقة طالما حنوا إليها بعد أن كاد «الترك» يكفرونهم بعودتها من جديد.

بل حتى صيغة البيعة، وهي العهد الذي يقطعه الثائر على نفسه «كقسم عظيم» كانت درساً في التهذيب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم. أما بعد، فقد بايعنا الله ورسوله، وبايعناك على توحيد الله، وألاَّ نشرك به أحداً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نأتي ببهتان، ولا نعصيك في معروف، بايعناك على زهد الدنيا وتركها، والرضا بما عند الله رغبة بما عند الله، والدار الآخرة، وعلى ألاّ نفرّ من الجهاد.

هذا عن التربية الفردية على أسس الدين الحنيف، لخلق مجتمع جديد في علاقات أفراده داخل إطار الأخلاق السودانية الأصيلة.

وأما عن الناحية الثانية (الإدارة) فتشمل الجيش وهيكل الدولة والقضاء. فأما الجيش فقد نظم بالتسلسل التالي: كل عشرين جندياً تحت امرة (مقدَّم) وكل مائة تحت امرة (رئيس

المائة) وأكثر من مائة يقوده (أمير) وعلى رأس الأمراء (أمير الأمراء).

وكل أمير كبير له راية خاصة بسريته معروف بها، وله طبول الحرب، والسلاح الخاص بسريته.

ثم فرقة (الجهادية[1]) البالغة المقدرة على استعمال المدافع والصواريخ وغيرها وكان أول من تولى قيادتها وتدريبها حمدان أبو عنجة.

أما الهيكل الإداري فقد كان منهجه بالطبع أيضاً إسلامياً مع مراعاة الظروف السودانية، والعادات الخاصة بالمناطق مما استوجب أن يكون الهيكل كالآتي:

يلي القائد المهدي أربعة خلفاء له هم (الخليفة عبد الله) وتتبع له كل قبائل غرب السودان يدير شؤونها ثم (الخليفة علي ود حلو) ويتولى الشؤون الخاصة بقبائل دغيم وكنانة وتتقدم جيوشه دائماً الراية المميزة له (الخضراء) ثم (الخليفة محمد شريف) وتتبعه قبائل السودان الأوسط ومنطقة دنقلا، الخرطوم، وسنار، والقاطنون على النيل وراية جيشه (الحمراء)، ثم احتفظ المهدي (للسنوسي) «بالراية الصفراء» كرابع للخلفاء.

---

(١) فرقة الجهادية التي اكتمل تكوينها في سنة ١٨٨٣م أثناء حصار الأبيض هي الفرقة العصرية في جيوش الثورة المهدية إذ تتكون أساساً ممن عملوا في الجيش التركي وتلقوا تدريباً عسكرياً عصرياً وكل الفرقة تتسلح بالأسلحة النارية وتخضع لأصول التحركات العسكرية...



أمير الأمراء

قائد معركة شيكان عبد الرحمن النجومي، وقد سمي قائداً عاماً لقوات الثورة المهدية بعد انتصار شيكان حيث قاد القوات الرئيسية في حصار وفتح الخرطوم في يناير سنة ١٨٨٥م.

وفي كل إقليم تحرره الثورة من الترك يعين (أمير) سوداني يتولى تصريف الحكم بمساعدة الأمراء والقادة في منطقته.

وأما القضاء فكان يخضع تماماً (لكتاب الله وسنة رسوله) على أيدي العلماء والأمراء.

وهكذا تكامل هيكل الدولة (جيش وحكومة وقضاء) في تناسق على نهج واضح مكن الثورة من قوة الاستمرار رغم الحشود الضخمة من جيوش الأعداء، ورغم تسلحهم وقسوة الظروف الطبيعية وغيرها[١].

ثالثاً ـ هيكل الدولة ونظمها بعد الاستقلال:

بعد دخول العاصمة الخرطوم لم تكن الثورة أبداً قوة عسكرية ضخمة ومنتصرة فقط، إنما كانت دولة ـ بكل نظم الدولة ـ لمدة تقرب من أربع سنوات، هي سنوات الكفاح المسلح، ولذلك في حياة المهدي لم يطرأ أي تغيير في هيكل الدولة ونظمها، وكذلك في عهد الخليفة، غير أن فرقة (الجهادية) صارت هي الجيش الرسمي بقيادة الأمير شيخ الدين، كما تمّ تأسيس كامل (لبيت المال) ودار (لسك العملة)

---

(١) ننبه إلى أن ذلك حدث هنا في هذا الوطن سنة ١٨٨٣م حين كانت جميع الأقطار المحيطة بالسودان تخضع للوصاية والنفوذ الأوروبي المباشر والمستتر ولم يكن هناك ضمير عالمي بالمعنى الواضح الآن ولم تكن الثورات الاشتراكية أو الزحف العظيم قد وجد.. ومع ذلك نجد منا من يلوك الحديث عن الإيديولوجيات والثورات والقوميات هنا وهناك بل ويعطيها الولاء!!

وورشة كاملة (للتسلح) واستدعت ضخامة الدولة إعطاء سلطات أوسع (لأمراء الأقاليم) ولكن القضاء ظل كما هو يقوم به قضاة أكفاء يتبعون (قاضي الإسلام) الموجود مع الخليفة في العاصمة (أم درمان).

وهكذا إيجاد مجتمع جديد حر مستقل يحكمه كتاب الله وسنة رسوله مستعينين (بالشروح) التي يضمها سجلاّن ضخمان هي (منشورات المهدي)، كانت التكامل النظري المتمم لرسالة الكفاح المسلح.

وفي مدى الثلاثة عشر عاماً التي استمر فيها السودان حراً مستقلاً، لم يكن هناك أبداً شعور بالافتقار الى الهدف المحدد، إنما كانت الثورة نفسها مندفعة بقوة تحاول تكملة رسالة القائد في الداخل والخارج رغم قسوة الظروف الخارجية التي أحاطت بالوطن(١).

وبعد:

فهذه هي ثورة وطننا العظمى في القرن التاسع عشر في تكاملها الفكري وفلسفتها الثورية الحقيقية مستمدة من واقع التاريخ تشمخ كمنارة تنير لشعبنا السبيل.

---

(١) كانت قوى الاستعمار العالمي الأساسية ـ في ذلك الوقت ـ بريطانيا وفرنسا ثم إيطاليا قد ذعرت لنجاح ثورة سودان قلب افريقيا بتلك الصورة الباهرة فهرعت تتحالف في السر والعلن وزحفت جيوشها تحاصر الثورة السودانية في الشمال والجنوب والغرب ثم الشرق. أنظر مقالنا «في ذكرى الاستقلال» صفحة ٧٠.

محتويات الكتاب

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina